ظِلَّانِ
لامرأة واحدة

آمال صبحي

ظِلّانِ لامرأة واحدة

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر
القاهرة – ش الشيخ معروف متفرع من شارع
شمبليون – عمارة ج - وسط البلد
تليفون: +20225743534
البريد الإلكتروني : arweqhhhh@gmail.com

رقم الإيداع: 2022/21064

الترقيم الدولي: ISBN: 978-977-797-448-6

بالتعاون مع بورصة الكتب للنشر والتوزيع
25 ش شريف - القاهرة

الطبعة الأولى
2022

آمال صبحي

ظِلَّانِ
لامرأة واحدة

رواية

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي مؤسسة أروقة وتوجهها.

إهداء

إلى الرجل الذي زرعني قامة بنفسج في وجه الحياة فكبرت به عدة حيوات، زوجي: مصطفى قباع.

إلى غابات ثلاث يشغلن قلبي باخضرارهن: وهاب ورفل وليلاس.

إلى أمي دوما...

الفصل الأول

عندما يُغلق باب للسعادة، يفُتح آخر...

لكننا لفرط تعلقنا بالأبواب الموصدة، لا ننتبه للأبواب التي فُتحت أمامنا.

هيلين كيلر

الغريب... كيان أقلع عن الانفعال، لا يجيد الدهشة، لا يتقن الحزن، والفرح بالنسبة له نكتة فاشلة، حتى الضحك عليها يعتبر مغالاة.

هو ذلك الكائن المنفي إلى العدم، الذي يمارس الانكسار نحو الداخل، داخله.

وكامرأة غريبة عن الوجود، سلبني الصوت المدوي أنفاسي، ومن وراء زجاج النافذة المغشى بالبخار الدافئ، رحت أراقب المشهد بحيادية، خالية من كل رغبات الحياة عدا رغبة مكبوتة بالبكاء.

تمر شيماء بقربي، تنكزني قائلة:

استعدي، سيصلون بعد قليل.

أجيبها : حسنًا.

دون أن ألتفت إليها ودون أن يتنحى نظري عن المشهد الممتد وراء زجاج النافذة، وأتمنى أن يتوقف الوقت وتتعطل الساعة الكونية ولا يحين بعد قليل. فأنا أحبذ قبل قليل، البارحة، الشهر الماضي، الأعوام الماضية، لأنني أدرك أن الوقت الآتي مؤلم.

ماهي إلا دقائق وسمعت صوت سيارات الإسعاف المزعجة.

يركض الجميع لأداء واجبهم وإنقاذ الجرحى، وأنا أسير بخطى متثاقلة وكسولة. لمحتني شيماء واقفة في زاوية معتمة لا يكاد يلفحها الضوء؛ محاولة التنحي عن أنظار البقية، هزت رأسها متسائلة عن سبب مواربتي. اقتربت نحوها وهمست في أذنها :

- أليس بين الجرحى مدنيون؟
- لا.... قالت بصرامة، وتابعت بنبرة ساخرة وأقرب للهمس:

حظ أوفر في التفجير القادم.

مدت يدها حاملة مقصا وطالبتني بأن أباشر عملي. أمسكت المقص بعد تردد وجرحت يدي عمدًا.

شهقت بعصبية: ماذا فعلت، ما بك؟

وكإجابة عن سبب التلكؤ هنا قلت للطبيب المشرف إنني جرحت يدي سهوًا، فقدم لي العلاج وإجازة لمدة أسبوع.

خرجت من المستشفى سعيدة جدًا، فرحة بأيام الإجازة.

خلال هذا الأسبوع سأجرب أن أكون حرة، سأبذر معظم الوقت بالنوم، وبالحديث إلى عماد إن توفر اتصال، سأتعاطى المأكولات الدسمة المحظورة، سأستمتع بالحلويات مستفيدة من العقاقير الفاتحة للشهية؛ فما عدت أطيق نفسي هكذا وكأنني خارجة من القبر بسند كفالة.

سأتناسى كل تلك الدماء والأطفال المصابين والأمهات المنكوبات، ولن أشاهد نشرات الأخبار، لن أهتم بنتائج أو مقررات مؤتمر جنيف وسأضحك حتى الثمالة من اجتماعاتهم التي لا تنتهي ولا تصل إلى نتيجة.

وهاهو الخيال يشطح بي وقد تحول كل مندوب مهرجًا، والقاعة سيركًا ضخمًا، وتحولت أسلاك مكبرات الصوت إلى حبال يتراقص عليها أولئك المهرجون، وأنا أغرق ضحكًا كلما فقد أحدهم توازنه وسقط أرضًا، ورحت أقهقه سرًا وأنا أشاهد ذلك السيرك وقد تحول فيه المصورون إلى قردة يقفزون على الطاولات والمقاعد بشغب.

أفسدت علي متعتي المتخيلة وخزة في يدي المجروحة، تذكرني أن مفعول المخدر قد بدأ بالزوال. وأشفقت على يدي، انتابتني رغبة بتقبيلها ولثمها والاعتذار منها. ربما ستعذرني إن

حدثتها عن المعارك التي تستعر داخلي، سأخبرها أنني أختنق كلما رأيت زيًا عسكريًا وتشل أصابعي تمامًا عن فعل أي شيء، ولا أجد حلًا إلا الاختباء في زاوية بعيدة كسنجابة اكتشفت عفن بندقتها الأخيرة.

سأخبرها بأنه لا قدرة لي على مداواة رجل حمل سلاحًا تحت أي مسمى أو انتماء أو ذريعة. وأن هذه الحرب بالنسبة لي معركة في طريق، يقف كلا المتعادين على رصيف مقابل للآخر.

الفريق على الرصيف الأول يطلق الرصاص دفاعًا عن الوطن، والفريق على الرصيف الثاني يطلقه دفاعًا عن الله، ولكن من يقتلون؟ يقتلون المارة، الأطفال النازحين إلى مدارسهم، الأم التي خرجت طلبًا للرغيف، والأب الذي غادر إلى عمله ليسد رمق عائلته.

الناس المارون في هذا الطريق، يصابون، يجرحون، ينزفون. هؤلاء هم مرضاي، هؤلاء من أكون مستعدة للتضحية بصحتي ونومي وراحة بالي لأجلهم وأشعر بوجعهم وبظلمهم وبعجزهم، وأجدني أكثر وجعًا وإحساسًا بالظلم والعجز منهم.

أما أولئك المستترون بزي عسكري بحجة النضال، فلا قدرة عندي حتى على استجداء محاولة لإنقاذهم، ولا رغبة عندي للحفاظ على حياة قاتل.

وصلت إلى المنزل متعبة، محملة بشعور ثقيل، مزدوج، وكانه خليط من الخوف والقلق والحيرة والأمل المنافق. هرعت إلى بريدي الإلكتروني لعلي أجد رسالة من عماد تهدئ سطوة الثقل هذه... ولم أجد.

وبدأت الأسئلة تلاحقني وتدور في رأسي كجني طيار...

أين اختفى ذلك الأحمق؟ منذ ثلاثة أيام وهو غائب!

ألا يفكر بأنني قد أكون مشغولة البال عليه؟

ألا يخطر بباله وهو الذي يعرف ما أعانيه من تشتت، أن يطمئن علي؟

ربما حبه للكاميرا يفوق حبه لي، وربما هو الآن يغازل الأفلام غير المحمضة ويطبع قبلًا متواصلة على ثغر الكاميرا الزجاجي، ويلمس أجزاءها الحساسة وشهوة عارمة تعتريه وخيال فاحش يساوره.

لا بد أنه يخونني مع تلك العاهرة. يضاجع سوادها الأملس ويتركني أنا البجعة البيضاء الشهية.

الشهية!! وأضحك سرًا.

حسنًا، ربما لم أعد شهية كما ينبغي في الآونة الأخيرة. ما كان عليّ أن أغرم برجل يحمل آلة تصوير في زمن لم تعد فيه الكاميرا

آلة لتحنيط اللحظات الجميلة والمناظر الطبيعية والحفلات والاحتفالات، وضحكات الأطفال المفرطة بالبهجة. الكاميرا اليوم آلة لتوثيق الفظائع والجروح، ولاختزال الدم والأشلاء في عمر ومضة. والصورة محاولة غبية لتحنيط جريمة هاربة.

ولكن ألا يشعر عماد بالمديونية لي؟

ألا يحمل لي جميلًا ولو صغيرًا يحفزه على الاتصال بي وطمأنتي؟

أم أنه نسي أنني أنقذته ذات إطلاق رصاص من موت محتم، وأنه لولاي لكان الآن في عداد الشهداء!!

حدث ذلك تحديدًا قبل ستة أشهر...

الفوضى تعم كل شيء، الطرقات مرتبة، الشرفات مزدانة كما هي منذ الأزل، واجهات المحلات متوهجة، أعمدة الإنارة باسقة بشعاعها الأبيض، العشاق يتبادلون الوشوشات، الأطفال يتذمرون، النساء تثرثرن، القمر حاضر بوجهه الأصفر، والنسيم يلطخ جسد المساء ببرودته. كل شيء اعتيادي أكثر مما يعقل وكأن شيئًا لم يحدث في هذه البلاد منذ دهر أو أقل، وكأن محاولاتهم في تشويه معنى الفوضى قد باءت بالنجاح... ولكن من قد يخشى الفوضى، ولماذا!

أوليست الفوضى صفائح الوجود التكتونية التي يبني عليها الإله فرضية المنشأ!

أوليست الفوضى متناقضات سائلة يثبت العالم من خلالها صلابته!!

ماذا لو أن كل ما يخطر ببالي مجرد تهيؤات، وأن ما أراه رتابة باذخة هو حقيقة الأمر، وأن كل تلك الفوضى هي في داخلي فقط!

وتنهشني الأسئلة بروية، وتقضم إشارات الاستفهام رؤوس أفكاري بسادية مفرطة ؛ وأغرق في الفوضى.

أدخل البيت... وإذ بعامر يجلس على الأريكة المقابلة للباب وأعراض الغضب بادية عليه، وأمي جلست بعيدة عنه، تفرك يديها ببعضهما والقلق يعنون ملامحها. أغلقت الباب بارتياب وسألت:

- ما بكما؟

نهض عامر من مكانه وتوجه إلي. صفعني بقوة أسقطتني أرضًا، كنت على وشك الإغماء ولكن عينيَّ المفتوحتين قليلًا تنبهتا لأمي الواقفة بعيدًا وقد ازداد ارتباكها وقلقها، فحاولت السيطرة على حواسي من أجلها. شدني عامر، رمى بي على

الأريكة، وجلس قبالتي محدقًا بي للحظات، وأنا أحاول أن أستفهم ما به، وركن آخر داخلي يحاول استيعاب أن عامر صفعني لأول مرة.

سألته بصوت متكئ على الإغماء: -لماذا؟ أجاب بعصبية مفرطة:

- ما هذا الجنون الذي تفعلينه؟ أتصدقين حقا أن ما يحدث في الشوارع من غباء ثورة؟. وأن بضعة صبية ومراهقات وحفنة مستثقفين قادرون على إسقاط الحكومة؟

عند قوله هذا تكهنت سبب غضبه، فأجبته وقد تمالكت صوتي:

- أجل، أصدق ذلك، هذا ما حدث في تونس ومصر، فلماذا لايحدث في سوريا؟

أطلق ضحكة صفراء ساخرة وقال:

- تونس ومصر! المشكلة أن أمثالك لا يفقهون شيئًا، ولا يملكون أرضية سياسية ويأتون بمثل وقاحتك ويقولون تونس ومصر.

سوريا هي سوريا، فلا تجري المقارنات بينها وبين دول أخرى، نحن مقبلون على جحيم قد لا ينتهي، والذكي هو الذي يحفظ سلامته.

قلت له:

- هذا جبن وليس ذكاء.

أجاب بنبرة مهددة:

- لست هنا لأناقشك، وإنما لأحذرك، وعليك أن تعلمي بأنه لو لم أكن أنا الموكل بملف طلاب الجامعات المتهمين بالتحريض، لكنتِ الآن في السجن مع أصدقائك الأغبياء، ترتجفين كفأر صغير وتنتحبين كجرو.

نهضت محاولة استجماع جسدي وسألته:

- هم عندكم! أرجوك... أخبرني كيف هم؟ ما هو مصيرهم؟

بدا محتقنًا بالغضب وصرخ:

- أهذا ما يعنيك؟ ألا يعنيكِ أنه كان من الممكن أن تكوني معهم الآن ! ألا تفكرين بي، بمستقبلي، وبوالدتك؟ متى أصبحت أنانية بهذا العمق؟

- أنانية أنا... وأنت ماذا؟... كل ما يعنيك هو مركزك الوظيفي، عملك حتى وإن كان ذلك على حساب كرامة الناس وقهرهم وظلمهم. أنسيت وعدك لي بأنك لن تسمح لأحد أن يظلمنا كماظلم والدنا قبلًا؟ سأل وقد لان صوته قليلًا:

- عن أي ظلم تتحدثين الآن؟
- أتحدث عنك، فأنت تظلمنا وتظلم نفسك، أنت في الموقع الخطأ ومع الطرف الخطأ.

اقترب مني وقد تجاهل ما قلته له وأمسك معصمي بقوة وقال:

- اسمعي، أحذرك من ارتكاب أية حماقة، فوقتئذٍ حتى أنا لن أتمكن من رقع أفعالك الساذجة.

كنت على وشك القول إن أفعالي حقيقية، والفعل الحقيقي من المستحيل أن يكون ساذجًا ولكن جرس الباب حال بيني وبين الإجابة فابتلعت كلماتي بصعوبة. وقف عامر قليلًا محاولًا السيطرة على أعصابه المنفلتة، ثم فتح الباب.

- مساء الخير سيد عامر.

أهلًا منير، كيف أخدمك؟

بدا على منير بعض التوتر وكأنه ما توقع وجود عامر هنا. وقال:

- زوجتي جرحت قدمها بقطعة زجاج ويبدو الجرح بليغًا.
- نظر عامر إلي وقال:
- اذهبي معه.

- ووجدت منير منقذًا لي في ذلك الموقف العاقر، ومشيت وراءه بصمت. تحت على بعد طابقين نزولًا، كانت رشا تقف خلف الباب، سألتها باستغراب:
- لا يبدو وكأنكِ قد تعرضت لإصابة، ما الأمر؟ أمسكت رشا يدي باكية متوسلة وقالت:
- أرجوكِ، إنه أخي، مصاب وينزف في الداخل، ولا يمكننا أخذه إلى المستشفى، ولا نعرف أحدا غيرك يمكنه مساعدتنا.
- سألتها: لماذا هو مصاب.

قالت:

هو مصور.... أصيب في مظاهرة اليوم وأحضره أصدقاؤه إلى هنا بناء على طلبه. ومشت أمامي لتدلني على مكانه.

كان غائبًا عن الوعي تقريبًا، جلست بقربه لأطلَّع على إصابته ووصلتني منه هلوسات غير مفهومة بفعل الحمى التي بسطت رداءها عليه، والإصابة كانت رصاصة استقرت على مقربة من الكبد. قلت لهما:

- وضعه ليس هينًا، لا حل أمامكما إلا نقله إلى المستشفى أو أنه قد يموت هنا.

كنت أنتظر جواب منير ورشا الحائرين حد الشتات عندما وضع يده على يدي محاولًا إثارة انتباهي، نظرت إليه وقرأت في عينيه المفتوحتين قليلًا أنه يفضل الموت هنا. قلت:

- حسنًا، سنخوض هذه المغامرة.

وما هي إلا نصف ساعة وقد لبت شيماء ندائي جالبة الأدوية والمعدات اللازمة. عملنا لساعتين متواصلتين، بذلنا جهدًا كبيرًا لنضمن لهذا الرجل الأسمر الملتحي حياة جديدة، وبقيت شيماء عندهم لتراقب حالته بينما عد ت إلى المنزل تجنبًا لقلق أمي.

وعلى سريري الذي افترشته بالوسائد والشراشف غير المتناسقة، وكأن عدوى فوضاي الداخلية قد انتقلت إليه، رحت أفكر بعامرالرجل الطيب، الشريف، النزيه، الزوج الوفي، الابن البار والأخ الذي تناديه أخته ب أبي. كل ما أراده العدل، لذلك درس الحقوق، أراد أن يكون محاميًا ولكن شاءت الظروف وتحول مساره، ولكن انخراطه في العمل العسكري لم يغيره، بقي كما عرفته دومًا، المرح، المتفائل، الودود، الثرثار أحيانا، العاشق للموسيقى، أذكر عندما سأله ابنه:

- أبي، لماذا اخترت لي آلة القانون لأتعلم العزف عليها، وأضاف متذمرًا : كنت أفضل "الغيتار" أجابه عامر وهو يمسح على شعره:
- الغيتار لا تاريخ له، أما القانون فهو آلة سافرت عبر الأجيال ورغم عمرها الضارب في السنين إلا أنها لم تتغير، بقيت بهيئة ولادتها الأولى، وهذا ما يميزها.

تدخلت في حوارهما وسألته:

- لم أفهم.... ما الذي يميزها بالتحديد؟ أجاب بصوت هادئ:
- الثبات ما يميزها يا ليلى، الثبات.

وأكمل حديثه إلى ابنه قائلًا:

وهل ثمت ما هو أجمل من القانون لتعزف عليه. القانون اختزال للسحر والعدل.

صمت الطفل أمام جواب أبيه الذي على ما يظهر لم يفهم منه شيئًا. وأنا شعرت بنشوة أم تحصد تربيتها لابنها ثباتًا ومحبة، وأنا وعامر لم تكن أمي التي ربتنا، بل كل منا ربى الآخر، فكان أبي وكنت أمه. ولكن التغيير أصبح يبدو جليا على شخصيته مع بداية الأحداث، وبدأ رويدا يتحول إلى ابن عاق، وأنا أبذر الوقت أفكر بسبب تغيره ولم أصل إلى نتيجة ففي زمن الحرب

لا مجال للتوقعات، لا وقت للتحليل، لا جدوى تحصد من الرهانات. فلماذا أتعب عقلي الصغير في محاولة بائسة لاستكشاف ما حصل مع عامر وغيره بهذه الطريقة الفجة.

في زمن الحرب، قلة من يتغيرون، وكثيرون يظهرون على حقيقتهم.

عامان من الحرب كانا كافيين ليضعاني أمام مفاجآت وصدمات كثيرة وخيبات أكثر. لم أتخيل أن يكون معظم الذين أعرفهم لصوصًا، ما كان ليخطر على بالي أن أحدًا من معارفي يمكن أن يقتل عصفورًا، وإذا بمعظم الذين أعرفهم يتحولون إلى قتلة.

ويكبر الشك داخلي، أحاول فهم ذاتي، من أنا وسط كل هذا؟

هل سيأتي يوم وأجد فيه مبررًا للقتل! وأنا عاجزة عن مداواة رجال وضعوا في ساحة المعركة سهوًا أو عمدًا.

كيف يمكن لقطعة صغيرة من النحاس اسمها رصاصة أن تغير القدر، وتحول مسار عائلة كاملة عن جادة الحياة!

دائما ما انتبهت إلى القناصين المتموضعين على أسطح الأبنية كحماية إضافية للحواجز، ودائما ما تساءلت عن كنه تفكير

القناص ومشاعره. فكرت بالقناص لأنه الوكيل الرسمي للموت.

أن يطلق قناص رصاصته فذلك يعني موتًا محتمًا. يدرك ذلك الرجل تمامًا أن المستهدف سيموت، ستنتهي حياته وتدمرعائلته، وستكون هناك أم مكلومة وزوجة مترملة وأبناء يتامى، ستكون هناك غصة في القلب إلى نهاية العمر ودعاء عقب كل صلاة بأن يأخذ الله له حقه.

من يملك حق سلب حياة إنسان آخر؟ كيف أقنعوهم، وبماذا وعدوهم؟

سيأتي يوم تختلط فيه الدماء والأحقاد والأنساب. فلا أحد يدري من يقتل، ولا أحد قادر على تحديد مسقط رأس الرصاصة التي تخطف الحياة ؛ وسنغدو كدمى مربوطة بحبال يحركها الجنون وسط معمعة الحرب هذه.

ولكن لماذا أحمَّل الأمور أكثر من اللازم، لماذا لا أكون مثل صديقاتي؟ فهن لم تفقدهن الحرب شهيتهن على الحياة بل رحن بحجتها تبذرن أوقاتهن في النوادي والسهرات والنزهات، فنحن كما يقلن في زمن حرب وخير وسيلة لمواجهة الموت هي الإقبال على الحياة. وحدي مع أربعة من أصدقائي أصابنا

اضطراب عقلي وارتفع لدينا مستوى سكر الضمير وهبط كوليسترول الحياة عندنا إلى أدنى من معدلاته، فرحنا بحماس الشباب نفتش عن طريقة لنغادر من خلالها قالب المتفرج ونشارك المتحركين نشاطهم. هم شاركوا بالمظاهرات التي بدأت سلمية، أما أنا فقد حال خوفي من عامر بيني وبين الخروج معهم ولكنني مارست نشاطي على المواقع الإلكترونية تحت أسماء وهمية فكتبت عن وجعنا وألمنا وصمتنا وحريتنا المسلوبة. ريم ونيكول كانتا مثلي تعتقدان أن ما نفعله قليل جدًا وأنه علينا أن نفتش عن طرق أخرى للمشاركة بفعالية أكثر في حين كان هشام وعلي أكثر حذرًا واكتفيا بالقليل الذي نفعله. ولكن حتى القليل الذي نقدر عليه اعتبروه جريمة واعتقلوهم بتهمة محاربة نظام اشتراكي، كما عرفت من أحد الأصدقاء لاحقًا. وأنا بقيت خارج السجن متهمة بموالاة نظام اشتراكي من قبل الطلاب في الكلية، لذلك قررت أن أترك دراسة اللغة الإسبانية وأن أقطع علاقتي بالجامعة.

ومضت عدة أيام وعامر لا يكلمني وأمي تتهرب مني وكأنني قد ارتكبت إثمًا عظيمًا. لذلك انكفأت على نفسي، وحلت عادة تصفح المواقع الإلكترونية مكان الوقت الذي

كنت أقضيه مع أمي أو في الدراسة. أدخل إلى غرفتي بعد عودتي من العمل مساء، أطالع بعض المواقع المثيرة للشفقة.

كيف يكتب الناس قصائد وقصصًا قصيرة !

كيف يستطيعون سلخ جلد حياتهم اليومية عن ذواتهم، ويبدعون خلال قصيدة في وصف جسد مراهقة حمقاء، وكيف ينشرون صورًا للطير والشجر والورد، ويتناسون الدم والأشلاء والحجر والرصاص؟

" باتت هذه المواقع مقرفة " قلت لي.

ورحت أطالع بعضها على أمل إيجاد مادة تثير اهتمامي ووجدت نصًا يتحدث عن حرب تشرين. قرأته بتمعن....

يحدثني أبي عن تلك الحرب قائلًا:

كان ذلك عام 1973، وكنت أنا كما كل الناس، على قيد الذهول، فقد تحطمت أسطورة الجيش الذي لا يقهر ؛ لقد انتصرنا.

لقد جاءت تلك الحرب في التوقيت المناسب، في الوقت الذي يفتك الوهن فيه بالشعب العربي والكهولة تسكن أجساد الشباب وعقولهم. العجز، الموت، القرف، القذارة، كلها تفترش أرصفة الشوارع وأرصفة القلوب والأرواح، ذلك لأننا

هزمنا وخسرنا وكانت نكسة 1967 وبترت إسرائيل من كل دولة تحيط بدولتها المزعومة قطعة، ودخل الشعب العربي بعد النكسة حالة موت سريري إلى أن جاءت حرب تشرين لتنعش الجثة، لذلك يمكننا القول إنها حرب تحريكية وليست تحريرية.

وإلى اليوم وبفضلها فإن حكومتنا السورية لا تزال شابة في عمر النصر.

لقد نست حكومتنا الموقرة أو تناست عجز اقتصادها وكهولة أبنائها في كافة الفئات العمرية وتناست المدارس ومناهجها المسنة ووزراءها المعمرين في مناصبهم. تناست كل ذلك وكأنها تأبى التقدم في السن منذ حرب تشرين.

ألأنه الانتصار الوحيد في تاريخها توقف بها العمر عنده، ولا تقبل إلا أن تكون شابة في عمر العنفوان، وتحاول إقناعنا بصباها كل عام بعطلة رسمية واحتفالات ضخمة وعرض عسكري وبث خطابات حماسية ومشاهد وثائقية لتلك الحرب.

يتابع أبي كلامه والخيبة تلوح في أفق عينيه:

عند مخاض تلك الحرب كنت ورفاقي نتجمع حول المذياع على مدار الساعة لسماع آخر الأخبار، وكان البرنامج موزعًا بين الأخبار والأناشيد الوطنية والخطابات وأغنية فيروز

"خبطة قدمكن"، وخلال أيام معدودة فقد كل سوري بعضًا من وزنه فما كانت نشرات الأخبار لتسمن وتغني من جوع، ولكنه بالمقابل كسب أطنانًا من الكرامة. كنا نسمع عن دول عربية تمدنا بالسلاح وأخرى قطعت التعامل النفطي مع إسرائيل وغيرها جاء غفر من شبابها متطوعًا للقتال.

وانتهت الحرب بانتصارنا كما يزعمون، وإلى اليوم ما زلت أتساءل:

ماذا أهدتنا تلك الحرب؟

لقد أهدتنا عمرًا من الوهم، وحاكمًا لم يزل منذ تاريخها يحكمنا حتى بعد موته بالخوف والشائعة. أهدتنا رجالًا بعاهات دائمة يزايدون علينا بوطنيتهم كما لو أنه على كل شخص ولكي يكون وطنيًا أن يكون قد فقد جزءًا من جسده في تلك الحرب بالذات وأهدتنا احتفالات سنوية.

وأمسينا شعبًا ينفق حاضره محتفيًا بالماضي فلا يكتب له مستقبل.

نحن الآن شعب يربي أبناءه على الوفاء لحاكم أبقى على ذاكرتنا سليمة ونضرة ولكنه شوه وطننا ووطنيتنا.

نحن شعب لم تعلمه المدارس أن يقول لا.

نحن شعب لا يجيد النطق، إلا أننا نصبح فصحاء في المحافل الرسمية والأعياد الوطنية وللهتاف فقط.

نحن شعب لا نتقن الكتابة، ولكننا ننظم الشعر والنثر والقوافي لمدح الحاكم والوزير والمدير.

نحن شعب تهدى إليه الهزيمة مغلفة بخطاب فاخر فيظنها نصرًا، ويمضي برجل أسقط عدة طائرات للعدو في حرب ما لينصبه رئيسًا.

فإذا به يومًا بعد آخر، يسقط أحلامه.

ومات أبي بحسرته دون أن يبلغ هذا اليوم. أين أنت اليوم؟

أخرج يا أبي، أخرج من تحت التراب لترى أننا شعب بلغ سن النطق وهتف بأعلى صوته... لا...

أخرج لترى أن قصائدنا تتغنى بالحرية، وأن الحاكم والوزير والمدير مختبئون في قصورهم كالجرذان. نحن يا أبي لم نعد نخدع بالخطابات ولم تعد تعنينا الكلمات المزركشة، إنها الثورة يا أبي، إنها الثورة.

أنهيت قراءة المقال وتملكتني رغبة في الرد عليه فكتبت:

إنها الثورة يا أبي...

الثورة التي أشعلت الأخضر واغتالت الألوان، التي شردت العائلات، وحصدت آلاف الأرواح ومزقت أوصال الوطن.

لا تغضب يا أبي... فأنا لست ضد الثورة، ولكن ثورتنا ضلت الطريق، أضاعت الهدف، وأمست أحلامها ساذجة ومطالبها غبية ونيتها سيئة.

ثورتنا اليوم أشبه بعاهرة يتجمع حولها المراهقون باذلين اقصى استطاعتهم لإرضائها، وهي تتمنع طمعًا.

تطمع أن تزيد الأرصدة البنكية لقواديها. كما أنها تحب الشبان الصغار فتغريهم بفصاحتها وبثوب الفضيلة المزيف الذي ترتديه، فيتجمعون حولها طالبين أن تكون الوسيط بينهم وبين الله، وهي بكل صفاقة تنقل إليهم وعود الإله بالجنان والحور العين وما يشتهون وتخبرهم أن الله عينها وكيلة عنه على الأرض وعليهم الانصياع لأوامرها. وهم أولئك الشبان الطامعون، يتسابقون لنيل رضاها، ورضاها ذاك يستلزم هتك أرواح الكفرة، رضاها يقطن خلف الدبابة والبنادق، وستظل هي دومًا غير راضية تمام الرضا عنهم مع أنهم يتجمعون حولها

كما الفراشات حول النار، ولكن هل يرضي النار غير انتحار الفراشة احتراقًا!!

أنا مثلك يا أبي، أعشق الحرية كما تعشقها، وأحب الثورات كما تحبها، ولكن أين هي؟!!!!

الفصل الثاني

الحياة كابوس، والموت بمثابة الاستيقاظ منه

everlyفلم

أحب تسريحة شعري الجديدة هذه، وأكاد أغرق إعجابا بلونه الكستنائي الفاتح، وأجدني فخورة بنفسي كوني قصصته قصيرًا جدًا، بالكاد يلامس كتفي. كان يعنيني ألا تغضب أمي لذلك خبأت شعري تحت قطع القماش لأكثر من خمسة عشر عامًا وحافظت على طوله كما تحب، ولم أعبث بلونه كما أوصتني، فجنيت بذلك عدم راحتي وسخرية عامر المقيتة فهو يعلم أنني غير مقتنعة بالحجاب ويدري أنني لم أحبذ يومًا تلك الجدائل الطويلة التي تشبه فتيات الرسوم المتحركة.

ارتديت الحجاب فقط مجاملة لأمي ولكنها ماتت قبل شهرين، فمن أجامل؟

وبعد موتها قررت أن أكون أنا، كما أحب وأرتاح، فعمدت إلى اعتماد موسيقاي الغربية عوضًا عن أغانيها العربية، ونويت عدم الالتزام بقوانينها الجاحدة التي فرضتها علي طيلة حياتي، وقررت خلع الحجاب لا لشيء غير كوني ارتديته عن عدم قناعة.

وقررت تغيير تسريحة شعري ولونه، وهاأنا أشعر بالخفة داخل هذا اللون، فاللون الأسود كئيب كآبة ليل شتوي بارد بلا

مدفأة،وطوله المبالغ فيه ذاك كان يخنقني ويلتف حول عنقي كحنش.

الشعر الأسود الطويل مملوء يا أمي ؛ مملوء حتى الثمالة بالحنين والألم، كما أن له ثقلًا مضاعفًا على الذاكرة.

أما هذا الشعر الكستنائي القصير، فلا وزن له، لا ثقل له، وهو مصاب بالخرف.

وما أجمل الخرف يا أمي... لو تدرين.!

نزلت على الدرج كل درجتين بخطوة. كنت فرِحة بمظهري الجديد الخفيف، ويتملكني فضول لذيذ حول هوية ذلك الرجل والعمر الذي يرزح تحته، فهو لم يجبني عندما سألته عن عمره وأنا لم أخمن، فهو يمتلك حماس الشباب، وحكمة رجل في الخمسين وانفعال مراهق وفضول طفل ومزاجية رضيع وحذر ناضج. وكل هذه المتناقضات متخفية وراء اسم " وطني. "

مقال واحد كان كافيًا لتنفتح بيننا أبواب من النقاش، والجدل أحيانا وتعارك لفظي في مرات قليلة.

شهران كانا كافيين لأغرق في دهشة رجل وهمي، رجل من مفردات، رجل يعشق اللغة ويلاعبها كقطة.

أسأله سؤالًا فيهبني سؤالًا منتحلًا صفة جواب. يقفز ذلك الرجل برشاقة بين النقاط، يتأرجح بين الجمل، وبعد كل نقطة

آخر السطر يهديني ألف كلمة ومعنى، ويتجاوز كل خطوط التعبير الحمراء دون أن يعبر تمامًا عما يريد.

ذات دردشة سألني:

- ماذا تفعلين؟
- أشرب قهوة... أتريد؟
- أنت قهوتي.
- وأنت كوبي.
- أنت المبتدأ والخبر.
- أنا المبتدأ، وأنت الخبر المقدم.
- أنت جملة بين قوسين، ولا يعنيني العالم خارج القوسين.
- أنت تفسير للحياة بين معترضتين.
- أنت همزة قطعي التي تصلني بالحياة.
- حسنًا....

-ما بكِ!!

- لقد هزمتني...

أجل، لقد هزمني تمامًا كما يحدث في كل تراشق لغوي بيننا.

فهو يتعامل مع اللغة كما لو أنها ملك يمينه، وأنا أتعامل معها كما لو أنها عصفور هارب من قفصه، أحاول دومًا الركض وراءه، ولا أجني في النهاية غير اللهاث.

ما قصتي مع الرجال الذين يحترفون اللغة، ترميهم الصدف في طريقي ويتحولون لمشاريع حب صغيرة، انتهت في المرتين اللتين أحببت فيهما بفراق غير مبرر. وماذا الآن!

بعد دقائق سأكون في حضرة رجل يحترف اللغة، فإلى أين عساي ذاهبة؟

وصلت إلى المقهى حسب الموعد ولكنه لم يكن موجودًا، أو أنه كان موجودًا ويراقبني عن بعد. أنا التي تنبهت إلى أنني بسذاجة منحته فرصة مراقبتي عندما أخبرته أني سأكون مرتدية ثوبًا أزرق.

بدا التوتر يبسط نفوذه عليَّ ورحت أمارس عادتي المضحكة عندما أتواجد في وضع كهذا. ولا أدري كم من المناديل نسلتها ومزقتها إلى قطع صغيرة جدًا ورميتها في المرمدة. عندما وقف أمامي قائلًا:

- ارحمي المناديل، ما ذنبها؟

رفعت نظري إليه وفتحت عينيَّ على وسعهما وقلت باستغراب:

- أهذا أنت!!!

تجاهل نبرتي واستغرابي، جلس بهدوء، ضم يديه إلى صدره، وعيناه تتفحصانني بجرأة أخجلتني، ثم قال:

- أجل.
- هل كنت تعرف من أكون؟
- طبعًا.
- ولماذا لم تطلعني على هويتك؟
- وأفوت على نفسي نظرة الاستغراب هذه وارتباكك اللذيذ تحت وقع المفاجأة، ثم أضاف:

الأزرق جميل بكِ.

- تقصد أنني جميلة بالأزرق.

ابتسم ابتسامة ودودة وقال:

- لا.... أقصد الأزرق جميل بكِ.

تمتمت بخجل بعد أن تنبهت لبطء بديهتي

- شكرا.

وسالته بصوت أقرب للهمس:

كيف اصبح جرحك؟

أجاب وبعض العتب لاح في نبرته:

- ألا زلتِ تذكرين؟ أخبرتني رشا أنكِ لم تسألي عني ولو لمرة واحدة.

أجبت محاولة التبرير:

- العمل يأخذ جل وقتي وظروفي صعبة و...

قاطعني قائلا:

- منذ ذلك اليوم ووجهك لا يفارقني. أنت لا تعلمين كيف يتعلق رجل بمنتصف اللاوعي بالوجوه، لأنه في ذلك المكان يكون أقرب للتشتت، وكل ما يحتاجه وجه يعيد ترتيب إدراكه. ووجهكِ لازال عالقًا إلى الآن في المنتصف، وأنا لازلت هناك في منطقة متصارع عليها من قبل الوهم والحقيقة، ولكِ الخيار في حسم النزاع.

فكرت.... لماذا لا يقول هذا الرجل كلامًا عاديًا ومختصرًا، لماذا لا يسألني إن كنت أريد المضي في هذه العلاقة أو التوقف هنا؟ لماذا يبذل كل هذه الكلمات في ابتكار حوار باذخ ولغة فاخرة؟ قلت له:

- وأنت ماذا تريد؟
- أنا أحب الحقيقة وأخافها، وأكره الوهم وأطمئن له.
- وأنا أريد الحقيقة، وأريدك أن تكون مطمئنًا.
- وكيف يطمئن رجل يمتهن الخوف، ويحيا على قيد القلق، ويخشى أن تخذله الكاميرا في لحظة الحقيقة العارية أو أن تتأخر عن موعدها الومضة.
- وأنا امرأة مبعثرة، منكسرة، والخوف والوهم لا يواتيان روحي.

25

أنا مرهقة حقًا ولا طاقة لي على خوض حرب ضد الترقب والانتظار، سأكون الخاسرة قطعًا، أنا على حافة الهاوية وخيبة جديدة ستكون بمثابة الضربة القاضية.

قال بعد شرود قصير:

- تتعاملين مع الحب بغرابة، فليس ثمت في الحب ربح وخسارة.

علاقة الحب هي ككل العلاقات الاجتماعية، ستنتهي يومًا ما، فعلاقتك بأصدقائك أو أمك أو حتى أولادك هي علاقات آيلة للانتهاء لسبب ما، قد يكون سوء فهم أو سوء تفاهم أو

سفرًا أو موتًا. لذا لا يجب عليك التركيز على النتيجة والتفكير بها.

كل ما عليكِ فعله هو الاستمتاع في زمن ما قبل النهاية. يقال إن نهاية الحب فراق أو زواج وفي الحالتين هي نهاية فاشلة ومع أي من هاتين النهايتين ستكونين أنتِ الخاسرة قطعًا، ولكنكِ يا صغيرتي ستكونين الرابحة دومًا في الوقت الذي يسبق الخيبة.

تجاهلت فكرته التي أخذت منها موقف الحياد وسألته محتجة:

- ولماذا ناديتني بصغيرتي، وأعتقد تقريبا أننا في نفس العمر؟

أجاب مبتسمًا:

- عمر الرجل يقاس بتجاربه، وعمر المرأة يقاس بشكلها.

وأنا قد أوصلتني التجارب سنّ الشيخوخة، بينما أبقتكِ براءة ملامحك وتفاصيل جسدك في زمن أول نضوج أنثوي، لذلك أنتِ صغيرتي.

وأضاف وهو يلملم حاجياته:

لكِ القرار الآن، فإما أن تستغلي وقت ما قبل الخيبة أو تبذري حياتك على رهان خاسر.

ومضى دون وداع.

في تلك الليلة لم أستطع النوم وأنا أتقلب في الفراش وتتقلب داخلي الاسئلة وتلتحفني الحيرة. لقد أحببته، وأدرك أن احتمال حبي له هو بسبب التوقيت الذي جاءني به... كبير.

فقد جاءني في وقت أعاني فيه من الفراغ والفقد وقلة الثقة.

جاءني في توقيت وحدتي الأولى وخوفي الدائم وقلقي المستمر.

أتاني متزامنًا مع إدراكي البكر لمعنى الخسارة الحقيقية.

ذات أمس اعتقدت أن خسارتي لعامر الذي لم أعد أعرفه هي خسارتي الأكبر. ولكن وأمام خسارة يونس بدت خسارتي السابقة أشبه بنكتة سخيفة حتى الضحك عليها يعتبر سخرية.

وعندما خسرت أمي أيقنت أن كل خساراتي السابقة كانت،واللاحقة ستكون، أقل من مزحة.

وثمة اليوم رجل يقدم لي الحب على طبق من خيبة ويعدني بخسارة حتمية. خسارة لا أدري كيف سيكون ترتيبها في سلم الخسارات السابقة. ورحت أفكر، أيهما أجدى...

أن أدخل علاقة مع رجل احبه وأهيم به وأعطيه أقصى استطاعتي وأتعامل معه كما لو أنه حدث لن ينتهي وأحلم

بالبيت الذي سيجمعنا والأولاد الذين سننجبهم وأبذر حياتي في انتظار يوم اللقاء، ثم ودون سابق تكهن يأتيني قائلا:

(أكملي القصة وحدكِ) ويمضي. فتنهار أحلامي، وتنهار امرأة قوية ولدت في عهده، وتنهار أفكاري وصحتي وأملي.

أم حب أعرف نهايته مسبقًا، فلا أبني بذلك قصورًا من أمل ولا أنتظر الضوء في نهاية النفق.

المشكلة الحقيقية تكمن في الأحلام، فأنا أحلم أكثر من اللازم وأحيا الواقع أقل من المعتاد. ما جدوى الاحلام المنتظرة إن كانت تقطن رحم الغيب، وهناك احتمال أجهاضها لأي سبب تافه كجرعة توقع زائدة أو رائحة تفاؤل نفاذة أو حمل ثقل فرح زائد، وهناك أيضًا احتمال آخر بأن تولد مشوهة. وفي كلا الحالتين سيعيش الانسان على قيد القلق إلى أن يحين موعد المخاض، وهنا أيضًا ثمة احتمال أن يكون الجنين ميتًا.

وأنا ذات علاقة حب مع أحدهم كنت ساذجة لدرجة أنني تجاهلت كل تلك الاحتمالات المعطوبة، وصدقت أن حلمي سيولد معافى،ولكن الكارثة وقعت واكتشفت أن حملي كان وهميًا، وأن حلمي مجرد انتفاخ في رحم التوقعات. فخاب أملي وخاب رجائي وخاب ظني.

وثمة اليوم رجل يعدني بأنه سيدللني طيلة فترة حملي ويؤكد لي أنني لن أعاني من أي مضاعفات ويعدني بسعادة ما؛ ولكنه أخبرني بالمقابل أن حملي لن يكون طبيعيًا وأنه سيطول أكثر من المتعارف عليه وأنه لن ينتهي بولادة.

وها أنذا واقفة في المنتصف بين حملين وحلمين. فهل أنتظر حبًا قد لا يأتي وإن أتى فإني سأعيش على قيد وهم يرفعني إلى سابع سماء ثم يهوي بي إلى تحت الأرض السابعة، تمامًا كما حدث في علاقتي مع يونس أم أختار الحلم الذي قدمه لي عماد وهو حلم جميل، واضح، وينتهي بحزن؟

هل أختار حب عماد أم أنتظر حبًا قد لا يأتي أم أقلع عن الأحلام والحب وأضمن بذلك سلامتي العاطفية؟ بأي منطق يفكر العشاق؟ وهل أملك حق الاختيار، وكيف يختار الغارق بالجنة الخروج منها بحجة حفظ السلامة؟

ويقطع سلسلة أفكاري اتصال من شيماء، أجيب:

- ماذا هناك في هذا التوقيت؟
- إنها نيكول، تريد أن تراكِ.
- متى خرجوا وكيف؟
- قبل ساعتين فقط.

- كيف هم؟
- لن أشرح الآن، هل يمكنكِ أن تأتي؟
- في هذا الوقت، سيبزغ الصباح بعد ساعات قليلة.

أخفضت صوتها قائلة:

- أخشى أن نيكول لن تكون موجودة لذلك التوقيت.

صدمني ما قالته وشتت انتباهي للحظات، عندما أعادني صوتها:

- هل أنت آتية؟
- أجل.

وفي منزل شيماء، كانت نيكول ممددة على السرير وقد تناثر حولها كل من ريم وعلي وهشام. كان الإرهاق يقطر من ملامحهم، نظرت إليهم بخجل، تمتمت بصوت شبه مسموع:

- حمدًا لله على سلامتكم.

قال هشام:

- من يدخل إلى هناك، لا يمكن أن يعود سالمًا لبقية حياته.

واقتربت ريم وعانقتني طويلًا وقالت:

- نحن لا نلومكِ يا ليلى، ندري تمامًا أنه ما كان باستطاعتك حيلة.

شددتها إلى صدري وعانقتها كطفلة التقت بأمها بعد ضياع، أنتحب وأبكي، شعرت أنني غير قادرة على التوقف رغم رغبتي بذلك، وهي شاركت بكائي المنتحب ببكاء أخرس.

***

خرجت من ذلك المنزل بعد ساعتين وكأنني متآكلة، وصلت إلى بيتي وأرسلت إلى عماد (لن أبذر حياتي على رهانات خاسرة، سأعيش الوقت بدل الضائع حتى الثمالة، تعال إلي فانا أحتاجك) وماهي إلا دقائق وكان عماد واقفًا عند الباب قامة متشحة بالسواد،دعوته للجلوس في غرفة الاستقبال واستأذنته لأعد قهوة فمسكني من يدي وشدني إليه وسألني : ما بكِ؟

وما بكِ تلك كانت كافية لإعادة فتح صنابير قنواتي الدمعية،عانقته بقوة ربما آلمته، ورحت أبكي على صدره كما لو انه ملاذي الأخير.

قلت له:

- نيكول ماتت ؛ ماتت أمام عينيّ، شاهدت جسدها ينتفض محاولًا استبقاء الروح داخله ولكنه فشل. وكيف لا يفشل؟

فجسدها لم يكن قادرًا على الحراك، ولم يكن باستطاعته ممارسة الشهيق كما يجب، فكيف إذن سيتمكن من الاحتفاظ برمق الحياة الأخير وقد عاث فيه الأوغاد فسادًا، أردت معانقتها ولم أقدر، فما من مكان في جسدها صالح للمس، لقد عذبوها، ضربوها،أحرقوا جسدها النضر بأعقاب سجائرهم النجسة كقلوبهم.

وأنوثتها الطاغية ضمنت لها مرات اغتصاب أكثر مما تحتمل.

لقد أخبرتني ريم أن نيكول كانت تعذب أكثر من البقية، فقد كان مبررا معاداة طائفة أخرى لهم، ولكن لم يكن الأمر مبررًا لنيكول وهي ابنة طائفتهم وشربت من مياههم وتربت على ذات معتقداتهم أن تكون خائنة كما وصفوها، فانهالوا عليها إذلالًا وتعذيبًا واغتصابًا. وأخبرني هشام أن عامر هو من استلم ملفهم وحقق معهم وأن كل ما تلقوه من عذاب كان بدرايته وتحت وصايته.

نيكول لم تمت بل قتلت ومن قتلها هو أخي. ولا أدري الآن ما الذي يحزنني أكثر، مقتل صديقتي أم تأكدي أن عامر هو أحد رعاة الموت في هذا البلد. هل تعلم... لقد كنت أعرف هذا ولكنني كنت أكذب نفسي دائمًا، لا سيما أنني سألته ذات مساء:

لماذا لا تكون مع الحق؟ فأجابني بأنه لم يحن الوقت بعد، وهذه الإجابة طمأنتني وارتحت لفكرة أنه ثمة وقت سيحين يكون فيه خارج هذه المعمعة.

وضع عماد سبابته على فمي لينهيني عن الكلام، وأخذ يلاعب خصلات شعري قائلًا:

- لا تتحدثي عن الطائفية يا حبيبتي، لا تكوني صغيرة العقل بأفكار قصيرة المدى. حربنا ليست كما يدعون، وليست الطائفية إلا حجة سخيفة ابتدعتها الحكومة لتبرير أفعالها الغائبة عن الإنسانية. هذه حرب ضد كل من تخول له نفسه أن ينادي بالحرية بغض النظر عن دينه أو انتمائه أو مرجعيته.

هذه إبادة شبه جماعية لكل من يتجرأ ويحلم بحياة أفضل، وغير ذلك فالصالح والطالح مبدأ مجسد في كل زمان ومكان وها هو عامر أكبر مثال على ذلك.

هززت رأسي دون معنى.

وقف، سحبني من يديَّ وبقي ممسكًا بهما وقال:

- عزيزتي، يؤسفني أن يكون لقاؤنا الأول مستظلًا بالموت ولكن هكذا شاءت الحرب؛ طبع قبلة على جبيني وأضاف: يجب أن أذهب.

- إلى أين؟
- إلى مكاني الطبيعي.
- سأكون قلقة عليك.
- لا تقلقي على رجل يحبكِ لأنه سيكون حريصًا جدًا على سلامته ليبذرها فيما بعد بقربكِ، وجودكِ بحياتي منحني دافعًا للحذر.
- ووجود ك بحياتي منحني دافعًا للخوف.

قبلني مرة أخرى على جبيني وانصرف، وبقيت وحيدة أصارع الأشباح والشياطين والملائكة والجن.

الفصل الثالث

خُلقت لأعتذر كل يوم عن وجودي في هذا العالم.

ن. كيدج

هل سألت نفسك يومًا عن أسوأ فعل يمكنك القيام به؟

وهل تدرك أن ماردًا يسكنك دون أن تعلم بوجوده، كبر ونما وترعرع في المكان الأضعف لروحك وتغذى من البنية التحتية لمشاعرك؟

وهل تعرف نفسك حقًا؟

عندما قال سقراط اعرف نفسكَ، ربما لم يكن يقصد أهمية معرفتنا لمواهبنا وإلمامنا بقدراتنا لتكون سبيلًا لتحقيق أحلامنا فيما بعد.

ولكنه ربما كان يقصد معنى آخر وكان يحول انتباهنا لمكان أبعد ؛ مكان تقطن فيه كل رغباتنا المرفوضة لدواعٍ أخلاقية.

اعرف نفسك تلك.... هي إشارة لضرورة فهمك لذاتك الحرة السجينة خلف قضبان ما يجب.

اعرف نفسك هي بمثابة نور ضئيل يشع بإصرار ليدلنا على الطريق التي سنسلكها لنمارس بضمير مرتاح الدناءة والخسة الشرعية.

وأنت لا تحتاج لأكثر من عدة صدمات، وبضع خيبات صغيرة، تشكل مجتمعة ثقبًا أسود يكنس كل ما هو من المفروض أنه أخلاقك الفاضلة، لتبدأ رحلة البحث؛ وستدرك أن

الأخلاق الفاضلة ليست بالضرورة أن تكون مطابقة للمعايير العالمية للإنسانية.

تخترق خيوط الشمس الواهنة زجاج نافذتي، تدغدغ وجهي بقصد دفعي لمغادرة الفراش وكما كل يوم وقبل أن أفتح عينيّ، أقول لكيان ما:

ها أنت تمنحني يومًا جديدًا وترغمني على مزاولة الحياة، ألا تمل؟

ألم تلحظ قلة اهتمامي بمنحتك تلك؟ ماذا عساي فاعلة بكل هذه الأيام،كيف أبذرها، ولا رفيق لي غير الوجع؟

أرجوك، خذ هذه الحياة وامنحها لمن يحتاجها، امنحها لشجرة الكرز التي تمد أصابعها لتداعب أقدام السماء، لابد أنها ستكون فتاة طاغية الجمال لو منحت حياة، وستعلن كل ثانية ثورتها على الطين.

امنحها للياسمينة أو الحبق أو شجرة التوت أو زهرة الصبار أو عربة الخضار أو الطاولة أو الكرسي أو الجدار أو الملاعق أو ركوة القهوة.

خذها واصنع بها ما شئت ولكن لا تعذبني كل يوم بحملها، ولا ترهقني بتحملها. افتح عينيّ وقد تمادت خصلات

الشمس بشغبها. أغادر الفراش بكسل وأفكر أمام المرآة، ليتني قادرة على عدم الذهاب، لقد مللت مشاهدة الدماء وسئمت الآهات وباتت تخيفني الأطراف المبتورة، لقد سئمت من كوني شيطان الرحمة الذي يحاول أنقاذ من هم في عداد القتلة. لقد انتهت كل حججي ومبرراتي وإجازاتي، ولم يبق مكان في يدي إلا وفيه ضربة مبضع أو مقص في محاولة للتهرب من التورط في ارتكاب جريمة تستتر برداء الإنسانية.

ذات طفولة كانت كل أحلامي تتلخص في ارتداء المريول الأبيض، وكان لقب طبيبة منتهى أمنياتي، واليوم يتحول المريول إلى كفن يلازمني طيلة ساعات عملي ويرافقني مرة كل أسبوع بهيئة مناوبة.

ولقب طبيبة بات عبئًا ثقيلًا، أحاول ما استطعت التبرؤ منه ولكن دون جدوى كما لو أنه وشم أبدي الصلاحية.

وحدهم الأطفال يعينونني على تحمل نفسي، ذلك لأنني عندما أعالجهم أتأكد أنني هاهنا ملاك الرحمة.

اليوم سأقدم استقالتي للمرة السادسة، لابد أن يقبلوها، ولا أفهم سبب تمسكهم بطبيبة متخاذلة ترتكب الأخطاء دومًا؛ ربما سأضطر في نهاية المطاف لقطع أحد أصابعي ذات الموقع

الحيوي بالنسبة لطبيب،وهكذا لن أتمكن من مزاولة المهنة وينتهي الأمر، قد أخسر إصبعا ولكنني في المقابل سأكسب ذاتي. أطلق ضحكة صاخبة، وها قد بدأت الترهات الصباحية.

وفي حضرة كوب قهوة أتفقد رسائلي الإلكترونية، فمنذ ولج عماد إلى حياتي وباتت هذه عادة صباحية، فيجب أن أراه متصلًا لأتمكن من التواصل مع الحياة ؛ ويجب أن يقول لي صباح الياسمين لأتأكد من أنني ما زلت على قيد الخير، يجب أن أطمئن عليه حتى لا أغرق طيلة اليوم في محيط من التكهنات المتعبة عن سبب عدم اتصاله.

ويبدو أنني هذا الصباح سأسبح في هذا المحيط، فلا رسالة منه وآخر اتصال له منذ البارحة.

ارتديت ملابسي على عجل وغادرت البيت قاصدة المستشفى ولكن جلبة في الطابق السفلي استوقفتني وتناهى إلى مسمعي صوت رشامنتحبة، سألت طفلًا متواجدًا على الدرج عما يحدث وأجابني أن شقيق رشا مات. ابتلعت ريقي على مضض وسألته وقد تلعثمت بصوتي عن اسمه فقال إن اسمه حيدر. وتنفست الصعداء وعاد صوتي إلي قليلا، ولكن ارتباكي وضيق وقتي منعاني من تعزية رشا، وتمنيت لو أنني أتملص من

العمل لأذهب إلى عماد وأشاركه حزنه وأخفف لو استطعت بعضًا من ألمه.

في مساء اليوم الموالي ذهبت إليه وقد بذلت جهدًا باهظًا في انتقاء بعض الكلمات التي افترضت أنها مناسبة للتعزية بفقد أخيه.

ذهبت إليه بثوب أسود ووجه شاحب وعينين منطفئتين، وكنت حزينة جدًا لحزنه الذي من المؤكد أنه يكابده، ولكن توقعاتي خابت.

ووراء الباب كان هو، مبتسمًا، حاملًا بيده كأس نبيذ أبيض، وتنبعث من الداخل موسيقى رقصة الزهور. هززت راسي مستفهمة،فوضع يده حول خصري وسحبني للداخل، وعلى أريكة في الصالة جلس يقابلني بابتسامة غامضة، وراح يحاول ترتيب خصل شعري وسألني:

- لم وجهكِ شاحب هكذا؟ غمغمت خجلًا:
- لقد تجنبت استخدام مساحيق التجميل.
- لماذا؟
- لأنني أتيتك معزية..... ألست حزينًا لموت أخيك؟ رمقني بنظرة محتجة وكأنه ما توقع مني هذا السؤال وقال:

- حاولت عبثًا أن أبكيه، فشلت كل محاولاتي في استجداء الحزن.

الإحساس بالفقدان ليس بمتناولي، فهو لم يمت، ولم يستشهد كما يحلو للجميع أن يسموه، ولم يقتل. لقد انتحر، ولا أستطيع استيعاب فكرة موته خارج هذا الإطار، لقد فقد حياته هباء وبذر روحه دون جدوى ولم يكن سوى مثال حي عن عبثية الموت المجاني.

لقد مات وهو يظن أن الجنة تقع خلف الدبابة وأن الحزام الناسف الذي فجر نفسه به هو مهر للحور العين. وأتساءل الآن ما هو شعوره وقد أدرك انه ليس ثمة جنة.؟ سألته بنبرة فضولية:

- وهل حقا تعتقد أنه ليس ثمة جنة؟
- لم أمت حتى أعرف إن كانت موجودة أو لا، ولكنني حتما لن أفرط ولو بدقيقة واحدة من حياتي في سبيل اكتشاف إن كانت حقيقة أو وهمًا، ولكنني أجدها فكرة غير صائبة.
- غير صائبة!!

- أجل، تكون غير صائبة عندما تختصر سعادة الإنسان برغباته، وتقدم طريقة إشباع تلك الرغبات كما لو أنها الحل الأمثل لإطفاء الاشتهاء.
- لم أفهم...
- لنفترض الآن أنني في الجنة ؛ ماذا قد تعنيني كل تلك الحور العين إن لم أكن أحبهن؟.... ماذا ستضيف لي القصور والأواني المذهبة والأكواب الفضية وحشود الخدم، وأنا أكره البذخ في كل شيء؟

وما الفائدة من الجلوس في ظل شجرة يمتد لألف عام وأنا لا أشعر بنفسي إلا كوني زهرة عباد شمس؟

- إذن!..

ضمني إلى صدره وراحت يده تتمشى على ظهري وقال:

- بيتي الصغير هذا، بغرفه الضيقة وطلائه المتآكل أحبُّ إلي من كل قصور الآخرة، ولو كان عندي كل خدم الدنيا لما سمحت لأحدهم بأن يعد قهوتي ويتلذذ برائحة طوفانها الأول نيابة عني،ولو ارتمت كل حوريات الفردوس العين عند قدمي لفضلت عليهن امرأة أعشقها، امرأة تثير قلبي وتخرج حواسي عن طورها، كما أن الجلوس في ظل مكتبتي

أو العمل داخل غرفة التحميض الحمراء يضاهي عندي ألف مسرة من مسرات الجلوس تحت ظل الشجرة الذي لا ينتهي.

أبعدني عن صدره، أصابعه تداعب وجنتي وعيناه تلتهماننني بلا هوادة وقال:

النبيذ ورقصة الزهور وأنت.... هذه جنتي.

اكتفيت بالابتسام فأنا لا أملك كلمات تضاهي ما يتفوه به هذا الرجل، وككل مرة أحشر في الزاوية الأخيرة من اللغة في حضرته.

قلت له:

- أحبك...

ابتسم وقال:

- الآن أصبحت في الفردوس الأعلى.

وساد صمت لطيف بيننا، اقتربت منه وعانقته دون كلمات. لا أدري كم سرق هذا العناق من وقت ولكنني أدري أنه سرق الكثير من التعب والقلق. قلصت جسدي قدر المستطاع ليتمكن جسده من احتوائي، أردتني أن أصبح جزءًا منه. ومع كل ذلك السكون، بدأت أسمع ضربات قلبه بوضوح كما لو أن

لنا قلبًا واحدًا ينبض في الداخل. فاجأني انتظام أنفاسه وأزعجني عدم محاولته لمسي باشتهاء. لم تكن تريد يده على ظهري إلا منحي شعورًا بالاحتواء ويده الأخرى على رأسي ما أرادت إلا إبقائي مستلقية على صدره، وشفتاه لم تحاولا ارتجال ولو قبلة سريعة،وقلبه لم يكن ينبض أكثر من المعتاد تحت تأثير الرغبة.

دقائق قليلة بهيئة عناق كانت كفيلة لتهبني شعورًا بالأمان افتقدته منذ ماتت أمي. هذا العناق كان أشبه بجرعة مسكن زائدة أحالت كل آلامي، كلها،إلى منطقة اللاشعور مؤقتًا؛ وأتساءل إن كان العناق مسكنًا قويًا فماذا عساه يكون العلاج؟

انسحبت من بين يديه على عجل.... نظر إلي مستوضحًا، قلت له وأنا أعيد ترتيب هيئتي:

- لقد تأخرت، اليوم موعد مناوبتي.
- ألا يمكنكِ استبدالها مع أحد زملائك؟
- أؤجلها منذ وقت، ولم يبق أحد لم أبادله وأصبح عليّ الآن أن أناوب لثلاثة أيام متتالية.
- لا بأس، أردت فقط أن نقضي الليلة سويًا.

شعرت بلمحة حزن في صوته، قلت له:

- لا بد أن يقبلوا استقالتي يومًا وعندها أعدك بأنك ستمل مني.
- الكاميرا وأنت، لا يسعني أن أمل منكما.

أهديته ابتسامة صغيرة وقبلة ومضيت.

كم أمقت هذه الكاميرا، ينتابني شعور بأنها أنثى منتحلة شخصية كاميرا وما إن أغادره حتى تظهر على حقيقتها، يمارسان سويًا كل أشكال الفجور وتأكلني الغيرة، وتفتك بكبريائي، وأجدني بلا منطق أغار من امرأة وهمية، وأكرهها لأنه قريب منها ولأنني بعيدة عنه، أكرهها لأنها هادم الملذات.

فكم من موعد ألغي لأن واجبه يناديه مع آلة تصويره، وكم من انتظار عانيته لأنه اضطر لمرافقة الومضة قليلًا؟

وكم من حزن سكنه وهو يخرج من رحمها صور الضحايا المؤلمة!

أكرهها كما لو أنها ضرتي، وكما لو أنه يفضلها علي.

وصلت إلى المستشفى متأخرة كعادتي، توجهت لغرفة تغيير الملابس، ارتديت كفني، وخرجت لاستلام مهامي.

جولة سريعة على المرضى وينتهي كل شيء، وحمدت الله لعدم وجود حالة طوارئ، على الأقل حتى اللحظة.

لم يمضِ وقت طويل حين سمعت أصوات بعض الأطباء يتبادلون حديثا مضطربًا. نزلت إلى الطابق السفلي لأستفسر عن الأمروإذ بشيماء موجودة أيضًا، سألتها:

- أنت هنا؟
- وماذا ترين؟.
- ما الذي يحدث؟
- وكأنكِ تسكنين خارج القارة...
- كنت أقوم بجولتي عندما تنبهت لحالة التوتر، كما فاجأني وجودكِ.
- إنه مدير السجن، موجود هنا في غرفة العناية الفائقة، مصاب بأزمة قلبية ووضعه حرج.

وأسمع اسمي من خلال مكبر الصوت، يطلبونني للتوجه لغرفة مدير المستشفى. ذهبت، وإذ بعامر بزيه العسكري هناك، ألقيت التحية ببرود ورد عامر بصلافة وعندما لاحظ المدير صقيع الموقف، استأذن وخرج. سألني عامر:

- كيف أنت؟
- بخير.

- لا تبدين كذلك.
- مجرد تعب وأرهاق.
- لا بأس، فهذا واجبك.
- هززت رأسي موافقة، وسألته:
هل ستقول لي لم أنت هنا؟
- أنا هنا للاطمئنان على صحة مديري في العمل، وقلت إنها فرصة لإلقاء التحية ولكنك – لا تبدين سعيدة برؤيتي.

وأمام عدم ردي، وقف وقال لَي:

اهتمي جيدا بمريضنا، أريد أن أكون فخورًا بكِ.

وانصرف محملا بنفس البرود الذي جاء به.

على حافة الموت هنا، مدير السجن الذي يخرج منه كل يوم عشرات المعتقلين والمعتقلات كما لو أنهم بقايا آدميين، يعذبونهم ويحطمونهم تحت مسميات سخيفة كالوطنية ودحض الإرهاب وغيرها الكثير من المسميات التي لا تمت للإقناع بصلة.

فأي وطن هذا الذي يرضى أن تبنى على أرضه سجون بهيئة جهنم؟

وأي إرهاب هذا الذي يمارسه أطفال في سنوات عمرهم الأولى، ونساء ليس لهم همٌ في هذه الدنيا غير بيوتهن وأولادهن وجيرانهن؟

وأي وطنيون هؤلاء الذين يمارسون القتل على مراحل، ولو اتبعوا سياسة حرق المراحل لوفروا على المعتقل عذاب أيام طويلة.

أي دناءة هذه التي تجعل إنسانا يذل ويهين ويستبيح جسد إنسان آخر؟ أية وضاعة تلك التي تصل بذكر لحد اغتصاب امرأة، كل ما اقترفته أنها زوجة شهيد أو أخت منشق أو أم متظاهر؟

كل يوم عشرات المعتقلين يخرجون كما لو أنهم أموات، مقابل آلاف منهم ما زالوا في الداخل يصرخون ويزعقون ويستنجدون وما من مجيب. ومدير السجن الذي تتم كل هذه الفظائع تحت رعايته، ممدد على سرير ومطلوب مني الاهتمام به والسهر على سلامته إلى أن يستعيد عافيته ويعود لمزاولة ظلمه.

كان يتراءى لي كما لو أنه مسخ أو أقرب لشيطان مع أن شيماء كانت تمدح هيبته ووسامته طيلة الوقت. طلب مني البقاء لثلاثة أيام متواصلة في المستشفى، حاولت في أول يومين أن أكون حيادية، وأن أقمع كل ليلى داخلي باستثناء ليلي الطبيبة. حاولت

جاهدة السيطرة على الأفكار الغريبة التي تتسكع في شوارع دماغي. طلبت من مدير المستشفى إعفائي من هذه المهمة ولكنه رفض محتجًا بأنني أتملص تقريبًا من كل المهام التي توكل إليّ.

وهاأنذا في مواجهة منتظمة لثلاث مرات يوميًا مع رجل مسؤول عن بتر ألسنة وأحلام الكثير من الناس، وكلما حاولت طرد هذه الفكرة، جاءني طيف نيكول مذكرًا، وزارتني أصوات ريم وهشام وعلي مؤكدة، وتتملكني رغبة عارمة بأخذ الثأر، وبالتشفي من هذا الرجل الذي يبدو كما لو أنه الرجل الأكثر إنسانية في عهده، تعبر عن ذلك طاقات الورود التي طاف بها المستشفى منذ دخله، ودموع زوجته ودعاء أولاده له بالعودة إليهم سريعا. عندما خرجت البارحة من غرفته، ركضت ابنته نحوي متسائلة عن حالته والدموع تغرورق في عينيها. أجبتها باقتضاب:

لا تقلقي، هو بخير.

أجابت بحزن مقرف:

- أتمنى ذلك، فنحن لا نستطيع العيش بدونه.

تركتها ومضيت كي لا تستفزني أكثر بدموعها وآلامها، وأنطق بما لا أستطيع تحمل عواقب التفوه به.

ابنته لا تستطيع العيش بدونه. هل فكر هو أيضًا أنه ثمة الكثير من الأطفال لا يقدرون على العيش بدون آبائهم المطروحين في أقبية سجنه ظلمًا؟... هل فكر بالأمهات المنسيات في عتمة المنفردات؟ هل فكر بالأطفال الذين هم بعمر أبنائه، يبكون تحت وقع سوط جلاديه؟

لكم تمنيت أن أسأل ابنته المدللة إن كانت تعرف طبيعة عمل والدها وماذا يرتكب، ولكنني فضلت الصمت وضعت في متاهة النوايا.

في موعد استراحتي، لم أنم، أتقلب وأتقلب وأتقلب في السرير دون نعاس، الأرق ينهشني، والحيرة تحتسيني على مهل كما لو أنني وجبة حساء لذيذة، والأسئلة تفترش أرصفة أفكاري وتتجمع مشكلة -وقفة احتجاجية ضد التفكير المنطقي.

صوت داخلي يطالبني بالانتقام وصوت آخر يطالبني بالبقاء على حياديتي. غفوت بعد ذلك متوسدة القلق، ولا أدري كم مضى من الوقت قبل أن توقظني جلبة في الممرات، خرجت لاستطلع الأمر وإذ بحالة طوارئ أعلنت بعد وفود عدد من الجنود المصابين في معارك العزة والكرامة حسب قولهم.

انسحبت بهدوء وعدت إلى غرفتي وقررت أنني لن أخرج طالما أن أحدًا لم ينتبه لغيابي، ولكنهم عادوا ليطلبوني عن طريق مكبر الصوت (الرجاء من الدكتورة ليلى التوجه إلى قسم العناية المشددة فورًا).وفي غرفة العناية الفائقة وجدت الطبيب نزار في غرفة مدير السجن وقال لي ان وضع المريض ليس مستقرًا وطلب مني ألا أفارقه أبدا.

جلست على كرسي خشبي على يمين سرير ذلك الرجل، وجلست ليلى ثانية على يسار السرير. وبيني وبينها رجل ممدد يصارع الموت. كانت ليلى الثانية تحدق بي بإصرار وقد امتلأت عيناها قوة وثباتًا، وكنت أحاول عدم التقاء نظراتنا.

نظرت إليها بعد تردد وسألتها:

- ماذا تريدين؟
- والآن، ماذا ستفعلين وأنت تدركين أن هذا الرجل هو الراعي الأول لكل عمليات التصفية التي حدثت داخل السجن بما فيها نيكول؟
- وما شأني أنا؟
- وهل أنت مقتنعة حقًا أن لا شأن لكِ؟ عليكِ أن تفعلي شيئًا، لا يمكنك البقاء على الحياد طيلة حياتكِ.

الله يرى كل شيء وهو القادر على إحقاق العدل متى أراد ذلك.

قهقهت بصوت مرتفع وقالت:

- إن الله يا عزيزتي ينفذ مشيئته بواسطة أتباعه، وأنت كما قلت مؤمنة بالله وعدله. فلم لا تكونين وسيط الله هنا في إحقاق العدل؟

ارتبكت ولم أجبها. وقفت وصاحت:

- هيا، ليمت هذا القاتل، اثأري لنيكول، انتقمي لأصدقائك المنفيين، اغضبي لذاتك الحائرة حد الجنون.

صرخت قائلة:

- وإن فعلت، ماذا سأكون قد جنيت، ثمة المئات أمثاله على أهبة استلام منصبه، لن يغير موته شيئًا.

صرخت بصوت عال جدًا:

- حمقاااااء، جباااااانة، فاااااشلة.

وأخذ صوتها يعلو أكثر فأكثر وهي تردد نفس الكلمات بغضب قارس. وضع ت يديَّ على أذني لأمنع صوتها المرتفع من الولوج إلى أفكاري. واستمرت في الصراخ، وتابعت محاولاتي في صد صدى صوتها، وبيننا يتمدد رجل، وجهاز

تخطيط قلب ينبئ بإنذار. هممت لاستخدام الصاعق الكهربائي لإعادة النبض لقلبه ولكنها بدأت بالصراخ كالمجنونة:

- لا.... لا تفعلي..... لا....لا.... لاااااااااا وأنا أرد على لاءاتها الصارخة ب:
- اخرسي.... اصمتي.... أنا طبيبة.... أنا طبيييييبة.

وراح صوتها يعلو ويعلو و يعلو، وصوتي يخفت ويخفت ويخفت، إلى أن جلست على الكرسي دون حراك، أراقب ذلك الرجل ينتفض ويفارق الحياة على مهل. وعندما لاحظت هي استكانتي جلست على كرسيها تراقب جهاز تخطيط القلب وقد استقامت خطوطه المتعرجة وابتسامة رضا ترتسم على شفتيها ونظرة فخر تعلو ملامحها.

دقائق قليلة جدًا، وعاد الطبيب نزار وفور دخوله هرع إلى المريض. نظر إلي باستغراب وأنا لا زلت جالسة في مكاني يتملكني الجمود. سألني:

- ماذا فعلتِ؟

ولأنني لم أجب، ولأنه انتبه لحالتي المتجمدة، اقترب مني وصفعني بقوة وأعادني بصفعته إلى عالم الواقع، تلفت حولي دون أن أعي تمامًا ما حدث، خبأت وجهي بين يدي وبدأت أنتحب قائلة:

- لست أنا، إنها هي، هي من فعلت ذلك.

وأشرت إلى ليلى الثانية التي كانت لا تزال على جلوسها مبتسمة، ورحت أبكي وأرتجف كجرو لقيط ملقي على قارعة الطريق في ليل شتوي ممطر.

نظر الطبيب نزار إلى موضع إشارتي مستغربًا وبدا عليه الارتباك في أقصى حالاته وهزني بقوة من كتفي وقال:

هيا بسرعة امسحي دموعك. استفيقي... استفيقي.

تمالكت شجاعتي وخرجت من تلك الغرفة مسرعة، بينما تولى هو مهمة إفشاء خبر موت مدير السجن إثر أزمة قلبية ثانية.

انتهى بي ذلك اليوم ملقاة على المقعد الخلفي لسيارة أجرة، ساندة رأسي على النافذة المغلقة، تراودني الأفكار اللامرتبة.

يخطر على أفكاري كل أولئك الآدميين الذين مروا بي، أمي وعامر ويونس وعماد وحفنة الأصدقاء وكومة الجيران وأكداس المرضى وأشباه الأطباء، وأولئك الذين لا أعرف لهم هوية وقد التقينا عند تقاطع طرق ذات سير.

أفكر بكل الوجوه التي لمحتها يومًا في المقهى، في السينما، في الحدائق، وفي كل مكان.

من هم؟

من أولئك العابرون على ناظري؟ ومن أنا؟

أنا أشبه بنملة تدور حول نفسها في متاهة المعنى أو أقرب لأكون دودة قز تحاول خلع شرنقتها داخل دائرة اللامعنى.

أشبه بعدم توازني معصية مستلقية على نقاط الانقطاع الفاصلة بين الموجود ولاءاته. أنا اليوم لست إلا كومة سخف ساقط عمدًا من السماء، ضائعة في غياهب الألق، متواجدة دومًا كغيمة ندم في سديم عدمي.

أشبه بقلة حيلتي صحنًا بلاستيكيًا قابلًا للشط والمط والتلون واحتواء ما لذ وطاب من قرف، وغير قابل للكسر كما لو أنه قدر له معاشرة الدناءة اللذيذة إلى الأبد أو إلى أن يحين موعد إعادة تدويره.

أنا المملوءة بالله طوعًا، وبالشيخ والكاهن والكتب المقدسة وأحاديث أبي هريرة وتفسير ابن كثير قسرًا.

أنا كدس من المتناقضات التي لا تنتهي، ولا تستريح، ولا تهدأ، ولا تعقل، وتسبب الدوخة. ولأجل كل هذا فأنا مشدودة من عنقي بحبل يا ليت إلى سقف التمني وأقف على رؤوس أصابعي فوق خشبة الأمل.

***

في المنزل، وقفت منتصبة كجذع زيتون تحت الماء الساخن في الحمام لم أدرِ كم مضى من الشرود عندما لسعني الماء البارد، شردت بانعكاس جسدي في المرآة، إنها المرة الأولى التي أتلصص فيها على عريي، لم أنتبه قبلًا إلى ان جسدي غير متناسق كما يجب، لم ألحظ الشامات الكثيرة المنتشرة في كافة أرجائه إلا اليوم، كما أنني لم أستطلعه بحيادية ولم أستكشفه كما ينبغي، ولم أتغزل به وأداعبه سرًا كما تفعل الفتيات عادة.

أنهيت حمامي وخرجت لأجلس في الصالة، كنت منتشيه بما فعلت، فخورة بما ارتكبت، وكانت ثمت ليلى أخرى نادمة، خجلة من خستها،منكفئة ومتقوقعة على ذاتها.

راحت أفكاري تدور في سديم بوهيمي، اختلطت مشاعري، اختلطت حواسي، ولم يخطر ببالي غير عماد لينقذني من هذا التشتت.

ولكن كيف سأطلعه على سري، وكيف سأئتمنه على مدخرات صندوقي الأسود، وكل ما بيننا جرح، وعزاء، عدة لقاءات، وحب؟ لقد وعدت الطبيب نزار بعدم إخبار أي أحد بما حدث في غرفة العناية الفائقة، كما وعدني بأنه سيتدبر أمر استقالتي بأسرع وقت ممكن.

حسنًا، ولكن عماد ليس أحدًا، هو جزء مني، هو بمثابة نفسي.

الا استطيع التحدث إلى نفسي؟

كما أنني الآن نسختان متشابهتان متناقضتان من ليلى، والتي قطعت على نفسها وعد كتمان السر هي ليلى المهزومة، النادمة، المنكسرة.أما ليلى الأخرى المنتشية بإنجازها فقد وصل بها الفرح لدرجة لا يمكن تحملها، ولا بد من أحد يخفف وطأة الفرح عليها.

تناولت هاتفي وأرسلت إلى عماد (أنا في البيت، تعال إليّ).

وبقيت مستلقية على الأريكة أراقب ساعة الجدار تكتك مع حركة عقاربها. كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجرا عندما قرع جرس الباب.

نسيت تعبي وإرهاقي وأقدامي المتورمة ورحت أقفز كجدي صغير،فتحت الباب على عجالة، ولم يتسن لعماد إلقاء التحية لأنني شددته إلي بقوة، عانقته، تشبثت به، التصقت به قدر شوقي، وعلى صدره لم أبكِ، لم أضحك، لم أشته البوح، ولم أبرر الكتمان.

ولكنني وبالتوقيت الذي لامست جسده، اعترتني رغبة عارمة، شهوة لم تتقمصني قبلًا، واختلط ذلك مع خوف طفيف لم يمنع شفتي من النزوح إلى شفتيه، ومضيت التهمهما كما لو أن أنوثتي كانت تعاني مجاعة قبله، وعندما هممت بالنزول إلى عنقه، تدخلت يداه، أبعدتاني عن جسده، حوط وجهي بكفيه، وسأل:

- ما بكِ؟

قلت له بعصبية :

- ما بي ! أحقا تسأل ما بي؟

بي أنني أشتهي رجلا يبعثر أجزائي بين يديه ثم يرتبني على مهل كقطع البزل. أشتهي رجلًا خرج للتو من بوتقة العدم، فلم يلطخ ذاته الشاهقة داخل معمعة الدجل. اشتهي رجلًا يجيد انتقاء الكلمات الفاجرة، يتقن قلة الأدب، يمتهن الشبق، فأكون عاهرته لليلة نبيذ. بي أنني اشتهيك أنت يا عماد، فأنا لا أعرف رجلًا سواك قادرًا على إعادة خلق امرأة.

وبحركة بسيطة فككت عقلة الشريط الذي يزنر ثوب الاستحمام وانهار القماش الذي كان يرتديني على الأرض، ورحت أحاول توقيع جسد عماد بشفتي.

لم أعلم ماذا حصل لي حينها، لم أدرك إلى اليوم كيف خلعت كبريائي وحيائي وثيابي بتلك الانسيابية المفرطة.

كنت عاطلة عن التفكير، عاطلة عن المفاضلة بين الخيارات،وكل ما كان يهمني إشباع رغبتي المتوحشة التي ارتدتني بغتة.

ولكن عماد استكثر علي تلك الرغبة، أبعدني عن جسده وقد تلبس وجهه غضب محمر، وصفعني بقوة أدمت شفتي السفلى، وتناول ثوب الاستحمام وستر به جسدي العاري.

سحبني من ذراعي ورمى بي على الأريكة، جلست منكفئة، وجلس بجانبي ولا زالت علامات الغضب واضحة على ملامحه. ساد الصمت لعدة دقائق، اغتال خلالها عدة سجائر نفثها على عجل، وكنت قد هدأت وتلاشت ثورة جنوني، وقال دون أن ينظر إلي ودون أن يتوقف عن نفث سيجارته:

- أنا لست ذلك الرجل الذي تشتهين يا ليلى. فأنا لن أخرج يومًا من بوتقة العدم لأن وجودي هو الوجه الآخر للعدم، كما أنك لا تعلمين شيئًا عن ذاتي الملطخة جدًا بكل ما في هذا الكون من متناقضات، ولم أفهم افتراضك بأنني أجيد

انتقاء الكلمات الفاجرة وأمتهن قلة الأدب ونحن لم نتحدث يومًا في أمر كهذا.

أنت تتحدثين عن رجل آخر، وذلك الرجل لا يشبهني ولو قليلًا.

أطفأ سيجارته في المرمدة وأضاف متسائلًا:

والآن.... هل ستخبرينني بما يحدث معكِ؟ تمتمت متسائلة:

- هل يمكنني معانقتك؟

ابتسم بلطف وقد لانت قسوة ملامحه، فتح يديه مشيرًا إليّ بقبول طلبي، ارتميت على صدره ورحت أبكي بلا انقطاع، وهو لم يقطع علي بكائي وربت على كتفي قائلًا، لا بأس.

وعلى صدره تحدثت بصوت متقطع عما فعلت، أخبرته أنني مريضة، ربما هو الفصام الذي يفصل بيني وبيني، بثت له قلقي من عدم ندمي، وخجلي من فخري، أخبرته أنني ارتكبت جريمة اليوم، تحدثت طويلًا ومفصلاً عن هواجسي ومخاوفي وصراعاتي وهو يصغي. وبعد أن تقيأت كل أفكاري وتنفست الصعداء، ضمني بقوة أكبر إلى صدره وقال:

- أنت على ما يرام يا حبيبتي، لست مريضة كما تتوهمين، وهذه الصراعات الداخلية نشأت مع نشأة الذات البشرية والفكاك منها ليس بمتناولنا. كل ما في الأمر أنه في بعض الأحيان ونتيجة لضغط ما نفقد قدرة السيطرة على تلك المعارك الداخلية وهذا ما حدث معك. كما أنك لم ترتكبي جريمة فأنت لم تكوني متحكمة بأفكارك وخياراتك فقد أصبت بعدم التوازن بسبب الجهد والإرهاق الناتج عن مناوبة ثلاثة أيام متتالية.

لنفرض أنك عندما هممت لاستخدام الصاعق الكهربائي وقعتِ وأصبت قدمك ولم تتمكني من أداء عملك، فهل ستكونين ملامة؟

- لا.... ولكنني لم أقع.
- الأمر سيان، فقد وقع تركيزك وأصيب توازنك وما كان بيدك حيلة فلا تجلدي ذاتك الجميلة، أنت لست ملامة.

لم أكن أحتاج إلى أكثر من هذه الكلمات لأتخلص من تأنيب ضميري ولتعتريني راحة منعشة.

ومضى المزاج المتوتر إلى سبيله ومضى عماد يستطلع البيت، توقف أمام المكتبة الصغيرة في الصالة وقد بدا عليه الفضول.

قلت له:

- هذه المكتبة كانت لأبي وأصرت أمي على الاحتفاظ بها كما هي بعد وفاته بالرغم من كونها لا تجيد القراءة، ولم نضف إليها أي كتاب فعامر لم يمتلك وقتًا فائضًا على مر حياته وأنا لست من هواة القراءة.

أجاب وقد تناول أحد الكتب بين يديه:

- وهذا يفسر كم الغبار الهائل هنا.

أخجلتني ملاحظته وتجاهلتها، واستأذنته لأعد قهوة، اتجهت إلى المطبخ ولحق صوته بي قائلا : ارتدي شيئًا، ستصابين بالبرد هكذا.

وفي حضرة كوبي قهوة قال:

- إذن، أنت لست عذراء؟

نظرت إليه بطرف عيني مستفهمة، وفهم إيماءتي وقال:

العذراء لن تكون متصالحة مع عريها لهذا الحد.

سألته كمن ينفي تهمة عن نفسه:

- وهل يهمك الأمر؟
- يهمني، ولكن ليس بالمعنى الذي خطر على ذهنكِ.
- إذن!!!

قال بعد أن اقترب مني وأمسك يدي:

- لا يهمني ذلك الرجل يا ليلى، لا تهمني معرفته، ولا يعنيني اسمه وعمره ولا يساورني الفضول حول أي شيء يخصه،ولكن يهمني كمَّ الأذى الذي سببه لك، ومقدار الخذلان الذي اجترعته جراء علاقتك به. يهمني يا ليلى أن أعرف لماذا لم يغادرك إلى اليوم، ولماذا هو مقيم تحت جلدك؟ ولماذا عندما تهزمك الرغبة تضاجعين خياله؟

أدرك الآن أن ذلك الرجل شوهكِ، شوه رغبتك، وشوه كيفية تعاطيك معها، فالرغبة في توقيت الألم والخيبة ليست شهوة للحب بل هي شهوة وهمية يخترعها العقل ليصرف تفكيرك عن السلبية. الرغبة يا صغيرتي ليست قبلًا وسريرًا وملاءات ورعشات وسخونة تقطر من عمودك الفقري..... الرغبة تفسير لشهوة العقل ورعشة الروح.

هززت رأسي واستسلمت للصمت وراح هو يراقب ارتباكي بحذر.

وقال بعد صمت طويل:

- جسدك شهي جدًا وقبلتكِ فتاكة وجنونك لاذع.

بدت علي علامات الخجل فاحمرت وجنتاي، وأطلق ضحكة صاخبة وقال ممازحًا:

أتخجلين لأنني قلت إنك شهية، وقد كنت على وشك أكلي بلا ملح قبل ساعة فقط؟... يا لغرابتكِ.

قلت له ولا زلت على خجلي:

- إنها فقط هالة المرة البكر التي جعلت ذلك الرجل لا يغادرني،لقد كان أول رجل يتعلق به قلبي، وأول من أهديته قبلة،وأول من يطأ جسدي، وأول خيبة، لذلك هو مقيم تحت جلدي وفي تلافيف ذاكرتي.

لم يعلق واكتفى بتصفح الكتاب بين يديه.

في تلك الليلة غنينا سويًا، جربنا رقص التانغو وضحكنا كثيرًا على عدم براعتنا في الرقص. تلى علي بعض النكات وأخبرته أنها سخيفة، أعددنا طعاما لم نتناوله لملوحته الزائدة، شربنا كؤوس نبيذ كثيرة، وصلنا حد الثمل، بكينا وضحكنا وفقدنا توازننا معًا، وأصبنا بالدوار معًا، وثرثرنا كثيرًا عن أشياء غيرمهمة، ومضى الوقت بنا وبلغنا الصباح، وأنهينا جلسة الفجور المباح،ومضى كل إلى غايته.

هو... إلى بيته وآلة تصويره.

وأنا إلى السرير الذي بقيت صريعته ليومين طلبًا للراحة.

الفصل الرابع

النهايات السعيدة هي قصص لم تنتهِ بعد

في هذا الوقت المتأخر من الصباح، أحاول النزوح عن ذاكرتي عبثًا.

أحاول تخيل الآتي عبثًا، كل محاولاتي للتفكير بشيء مجدٍ غيرمجدية. كل ما في الأمر أنني أحيا على قيد اللاانفعال، فقد أقلعت عن الحياة خارج بيتي منذ حصلت على استقالتي قبل أربعة أشهر وتزامن ذلك مع مغادرة عماد إلى المناطق المحررة كما يسمونها.

كل ما في الأمر أن ذهني شارد وشبان أفكاري في إجازة، وأبواب روحي مؤصدة على اللارغبة.

أقف أمام مرآتي، أحاول التعرف علي، تلك الفتاة على الضفة الأخرى ليست أنا، والفتاة على هذه الضفة ليست أنا أيضًا، هذا الوجه لا يشبهني ولو قليلًا. فأنا لازلت شابة، ربما تجاوزت الثلاثين بقليل، ولكن ثلاثين عامًا غير كافية لتظهر بحجتها التجاعيد على جبيني، ولتسور عيني غيوم رمادية تتصف بالثبات، لاهي تمضي ولاهي تمطر، وليست كافية أيضًا لتحفر جانب شفتيَّ ساقيتين ينحدر الملح منهما.

أقف أمام مرآتي وقد بذلت جهدًا مضاعفًا في هذه المحاولة، فما عدت قادرة على حمل جسدي وعذابي ووجعي وشوقي ويأسي.

أعددت قهوتي وجلست إلى طاولة المطبخ كما عودتني أمي.

كنت أحتج دومًا على قوانين أمي المنزلية وأكره الجلوس مع كوب قهوة في المطبخ، وأقول لها:

- لا يليق بالقهوة يا أمي أن تتناول هنا على مقربة من الصحون والملاعق، ولا يليق برائحتها المترفة أن تمتزج مع رائحة البهارات اللاذعة ؛ ليس عدلًا أن يعكر مزاجها بحديث عن نوع الطعام الذي أفضله على الغداء.

المكان اللائق بالقهوة هو على الشرفة المزدانة بأقاصيص الرياحين ليتناغم عبقها مع را ئحة الياسمين النقي المنبعثة من شرفات المنازل ويعانق كل ذلك موسيقى متسارعة لباخ.

وكانت تجيب مازحة:

- أيتها العاقة، أتفضلين موسيقى باخ هذا على الحديث معي وتحبذين سماع موسيقاه على سماع صوتي؟
- غنّ أنت لي إذن...

فتضحك ضحكة خفيفة وتتجاهل طلبي.

كانت أمي توبخني دومًا لأسباب تافهة وحجج واهية، كما لو أنها تجد في ذلك متعة لا تحصى أو كما لو أنها تتخذ من توبيخي هواية تمارسها وقت الملل، وكنت أدخل إلى غرفتي لأتجنب مجادلتها، وكلما علا صوتها، رفعت صوت مسجل الموسيقى فيزداد غضبها لأنها تكره الموسيقى التي أسمعها وتصفها بالمزعجة والمقيتة.

استغرقت عدة محاولات لتتمكن من تهجئة اسم تشايكوفسكي، وكانت تسخر من اسم باخ، وتبدي انزعاجها كلما رأتني أمام التلفاز مأخوذة بمهرجان الفرح الذي يبتدعه ياني وفرقته على المسرح وتسألني:

- لماذا لا تستمعين له بعيدًا عن تلفاز المنزل وثمت اختراع يدعى سماعات، لا أدري إن كان قد وصلك.
- إن ياني يا أمي يرى ولا يسمع، موسيقاه لن تجتاح أذني إن لم أكحل عيني بحضوره المفعم بالخفة.

حاولت جاهدة أن أسرب إليها بعضًا من حبي لهذه الموسيقى ولكنها أبت حتى المحاولة وبقيت عاداتها الموسيقية رهن اللاتغيير. فيروز صباحا ونجاة الصغيرة مساءً وبين الاثنتين يزورنا كل من وردة وأم كلثوم وعبد الحليم، وتغفو دائما

على موسيقى عبد الوهاب، وفي محاولة لكسر عادتها تلك، غيرت موسيقاها بمقطوعة زامفير الشهيرة مونامور ووقفت للحظات، سعدت كونها استمرت في نومها ولم تنتبه للتغيير،وما إن تجاوزت غرفتها بخطوات قليلة حتى سمعت أغنية

"هان الود" تتسلل إلي بإصرار.

يا إلهي، هل ثمت أحد في هذا الكون لا يحب هذه الموسيقى، أتخيل أن النجوم والكواكب ومجرتنا أجمع ستشعر بالاسترخاء لو أنصتت إليها. أتخيل لو أن للشمس أذنين، لو أنها استمعت لمونامور ربما كانت تأخرت في موعد شروقها أو استبقت وقت الغروب.

حسنًا، لا بأس، لن أحاول ثانية، فما من جدوى. قلت لنفسي.

آه.... ما عدت أطيق ألم هذا الضرس الذي يحاول جاهدًا شق طريقه في لثتي التي بنت بدورها جدارًا ملتهبًا في محاولة صد ضرس العقل الذي لا ينفك يعاود دأبه في محاولة البزوغ، فيقطع بالألم الذي يسببه نزيف ذاكرتي.

من أطلق على هذه الأضراس الزائدة لقب العقل؟ من منحها صفة التوازن؟ لماذا لم يسموها أضراس القلب مثلًا؟

يقول موروثنا أن بزوغ هذه الأضراس مرتبط بثبات العقل.

هذا خبر جيد إذن، أنا على أبواب الحكمة، ولكن لماذا قد تكون الحكمة مؤلمة لهذا الحد؟

ما أعظم بؤس الحكماء وما أقبح حياتهم المتغاضية عن كل جمال!... هم من السذاجة ليخلعوا كل رغبة ويستتروا بالفضيلة والتسامح.

أما أنا فسعيدة جدًا بعدم حكمتي، سعيدة بشبه الجنون الذي اعانيه، وبلهاثي وراء الحب، كما أنني فخورة بالجريمة التي ارتكبتها، وسعيدة بمراهقة قلبي.

قلبي! !!

وأتخيل لو أن للقلب أضراسًا تبزغ فيبلغ بذلك ثباته.

يا للكارثة إذن، لن يبقى هناك ورد وشعراء وعشاق وقصائد وجرائم حب، وأنا لن يبقى لي ما يبقيني على قيد الترقب.

أنتبه إلى قهوتي التي بردت وخبا خيط البخار المتصاعد منها رفيعًا،كما تقلص وجهها البني ملتصقا بحواف الكوب وطغا سوادها على المشهد. امسكت ملعقة صغيرة وحركتها بتأنٍ، صدرت عن الحركة في المنتصف بضع دوائر، رحت أراقبها

تضمحل رويدًا ولاحظت انعكاس وجهي في جوف قهوتي، ومع الدوائر المتضائلة، بدأت أدوخ، أسندت رأسي إلى الوراء على الكرسي الخشبي.

- هذا الكرسي غير مريح، لماذا لا نستبدله بمقاعد جلدية مثلًا؟ كنت أسأل أمي، وتجيب:
- اجلسي على الأرض إن شئت.
- سأبرد إن فعلت وبعدها سأصاب بالإنفلونزا وقد يتطور الوضع ويصل بي الأمر صريعة الحمى، وبعد ذلك التهاب سحايا، ثم يتلف دماغي وأموت....
- أيرضيكِ أن أموت يا أمي بسبب كرسي؟

أسألها وضحكة تحاول الهرب من بين شفتي ؛ وتجيبني متذمرة بعد أن تلعن الساعة التي اصبحت فيها طبيبة:

- حسنًا، ضعي بطانية واجلسي على الأرض.

وأمام جوابها أصاب بالصدمة لا جدوى من محاولة التغلب عليها،الأفضل لي أن أصمت أقول لنفسي.

وهاأنذا أجلس على الكرسي الخشبي نفسه، أعاني برد الغياب، إنفلونزا الشوق، حمى الحيرة، والتهابًا في الذاكرة قد يتلف عقلي بسبب به، وأنتهي ضحية الحنين.

لقد اشتقتكِ يا أمي، اشتقت رزانتك وحكمتك وسعة قلبك.

اشتقت لتوبيخك لي على كل صغيرة وصغيرة، فأنت يا أمي لم تعرفي يوما عن كبائري.

لم أخبركِ يومًا أنني أكره الحجاب الذي فرضتيه علي وأنني سافرة من الداخل، وكذبت عليك عندما أخبرتك أن يونس تقدم لخطبتي بعد أن رآني في المستشفى بحكم صداقته بنزار، وكذبت أيضًا عندما أوهمتك أنه رجل صالح.

ذاك الرجل لم يدمرني، لم يحولني حطامًا، ولكنه تركني على حافة الانهيار، ولا أقسى من الكارثة إلا العيش على قيد توقعها في أية لحظة، وأنا كنت كل الوقت أخشى على نفسي الانهيار.

لم يأخذ يونس مني أغلى ما أملك، ولكنه أخذ ما أقنعتني أنت به على أنه أغلى ما أملك، وقد أوجعتني تربيتك تلك يا أمي.

لماذا فعلتِ ذلك؟

لماذا لم تخبريني أن فض بكارة القلب أكثر إيلاما من فض بكارة الجسد؟

لماذا أوهمتيني أنه ليس للمشاعر عذرية يخشى عليها، لذلك استبيحت مشاعري بسبب انشغالي بمداراة عذرية جسدي، وعندما تنبهت إليها كانت قد هتكت العذريتان.

لقد عشقته يا أمي، عشقت حضوره المتعالي ولغته الفاخرة.

لقد أغرقني في بحر شعر وأنا بين جملتين وفاصلة لا أجيد العوم، لقد أفسد علي عبادتي، فأفسد على قلبي صلاته وأفسد على جسدي الصوم، لقد انتهى صومي في عهده، انتهى على مائدة مطلة على البحر. أفطرت ولم يكن الإفطار شهيًا وما كانت الوجبة لذيذة، والمائدة بدائية خالية من أي ترتيب وترغيب.

لقد امتلكني كما أعتقد، وأنا اعتقدت أنني أغرقته شغفًا، ورحت بسذاجة مراهقة أحلم بالثوب الأبيض والمنزل المرتب المفعم بالحب، وبأولاده الذين سأنجبهم.

ما أغبى النساء حين تغدو أقصى أحلامهن التكاثر!

وما أتعسهن عندما يتعلقن بذكرى رجل رحل دون سابق مبرر!

ولأن الحياة أهدتني بيادر لا تنتهي من التعاسة، فلازلت متعلقة بذكرى يونس.

أذكر أنه قال لي ذات أمس : لجسدكِ رائحة المانوليا.

وقتها سعدت جدًا بما قاله رغم أنني لم أرِ المانوليا يومًا ولا أعرف هيئة لرائحتها، ولم أنتبه أن لجسدي رائحة غير رائحة الملح المتكاثف في انحناءاته بعد يوم عمل طويل.

مع يونس كنت عاشقة لمرة أولى لذلك تعثرت كما يتعثر طفل في خطوته الأولى.لم أرد أن أظهر بمظهر الغرة أمامه، هو الفارس المغوار في ميدان النساء، أردت أن يراني امرأة مثيرة، مكتملة، وناضجة وقررت أن لا أتلعثم في حضرته وأن لا أسمح لجسدي بالارتباك.

رحت أتدرب على إتقان قبلة حاولت جاهدة أن تبدو كما لو أنها ليست بكرًا، أردت أن أثير حفيظته وأن أشعل فتيل الرغبة لديه وأن أمارس معه بعض الممنوعات التي تثير فضولي وأن أستكشف منطق رغبته.

مع يونس لم أستطع الحفاظ على توازني، لم يهبني فرصة لأكون أنا كنت دومًا فتاة أخرى، اخترعت فتاة تكون على قدر توقعاته وآماله، خشيت أن أخسره، فخسرت نفسي في محاولة لكسبه، ومعه تعريت قسرًا في المرة الأولى وطوعًا في عدة مرات لاحقة.

معه... رحت أحلم بالبيت الذي سيجمعنا، ومضيت حد اختيار ألوان جدرانه وأبوابه وكيفية ترتيبه، نمت في مخيلتي أربع غرف للأطفال، رسمت على جدرانها الفراشات والنجوم ولونت السقف بالأزرق.

أجل... لقد تمنيت أربعة أطفال منه وأردت لأسقف غرفهم أن تكون بلون السماء.

أرادني أن أكون ملكة منزله، ربة قلبه، وفراشة النور التي تنير درب رحيقه، وأردته كل أحد وكل شيء.

كنا نتشاجر لأسباب تافهة ونضحك ونغني ونبكي ونرقص وننتفض نشوة في عمر لقاء. قلت له:

- نحن نغرق.
- أنت تغرقين، أنا أجيد السباحة.

أفزعني جوابه، لم أستطع تقبل نكهته الفكاهية، أخافني احتمال أن تكون كلماته هي الحقيقة وأنني سأغرق لأنها محاولتي الأولى في السباحة وهو سينجو لأنه ابن البحر والموج والإعصار ولأنه خرج سليما بعد كل سباحة.

قلت له:

- أنا لا أفهم شيئًا، أخبرني ما الذي يحدث؟

- أجمل ما يحدث، أننا لا ندري ما يحدث.

وكان أسوا ما يحدث أنني لا أدري ما يحدث.

رحت مع يونس أبذر أيامي بالأحلام، أتعاطى السعادة بانتظام، أدمنته أدمنت صوته ورائحته وجسده وكلماته ونظرته المكابرة. قلت له:

- أدمنتك.
- اتمنى لكِ عدم الشفاء.

ضحكت على إجابته وتحول ضحكنا ارتعاشات وانتفاضات متتالية على السرير.

ومرت الشهور وأصبحت كالمدمن الذي يعي خطأ ما يفعله ولا يستطيع الفكاك، أصبح يونس معصيتي التي أدعو الله أن يغفرها لي وأمسى سري الكبير الذي أواريه في قلبي عن أمي وعامر، وفي النهاية أصبح مشروع زوج...

مر كل شيء بتلقائية مخيفة، توقعت أن ترفضه أمي بعد أن تتعرف عليه بحكم أفكاره وتحرره المبالغ به، هي التي تعتبر الصلاة عماد الدين والستر حجاب والخمر منكر، كما توقعت أن يحتج عامر على فرق العمر بيننا والذي يتجاوز العشرين عامًا،

هو الذي كان يقول لي دومًا : أحبي رجلًا على قدر شغفك وطاقتك وجنونك.

ولكن عامر وأمي لم يعترضا بل وأ عجبا به أيضًا، ولأنني فتاة اعتادت عدم اكتمال أمانيها تخوفت من سير الأحداث السلس هذا.

ولكن تخوفي لم يمنعني من التوقف عن الحلم فذهبت وشيماء ندور الأسواق ودور الأزياء في محاولة لإيجاد ثوب الزفاف المشتهى ورحت حد انتقاء الحذاء ودبابيس الشعر وأثواب النوم المغرية والبيجامات القطنية، كنت أسير على الأرض بخفة، لا أتعب ولا أرهق ولا أمل ولا تؤلمني قدماي ولم أفوت فرصة لأقول لشيماء إنها كانت مخطئة وأن هذا الرجل أهداني الفرح، الكثير من الفرح.

وكانت تهز رأسها ممتعضة وتجيب ب : أتمنى ذلك.

ولكن أمنيتها باءت بالخذلان كما باءت أحلامي بالسقوط.

لم أدرِ لماذا قد يفعل ذلك!

ما الذي دفعه ليتفوه بثلاث كلمات لا غير، ويمضي.

كما لم أستطع تعليل انكماشه وصدمته عند رؤيته لصورة والدي المعلقة في غرفة الطعام، وقف مشدوها أمامها، أصابه

الجمود وقد تسمر نظره إلى الجدار ثم خرج من البيت مسرعًا كمن رأى شبحًا.

انتظرت منه اتصالًا يبرر فيه ما حدث ولكن اتصاله لم يأتِ ولم يأتِ أيضًا على موعدنا في اليوم الموالي، وبعد يومين وفي توقيت غروبنا، في مقهانا، وعلى طاولتنا كان جالسا، جلست أمامه صامتة، انتظرت أن يبدأ الحديث، راقبت ملامحه المنقبضة، وهو لم يلتهمني بنظراته كما يفعل عادة، لم يأخذ يدي ليضمها إلي يديه بل ولم ينظر إلي حتى كان يتجنب التقاء نظراتنا، ويعالج حبه وشوقه ورغبته بالتهرب.

وبدوري تعمدت عدم سؤاله وطال الصمت وطال ارتباكه وصمته، وكنت على أهبة خيبة.

كسر ذلك الصمت بثلاث كلمات، قال:

- أكملي القصة وحدك.

ومضى مسرعًا، هرب من أسئلتي ومن عيني ومن قلبي، وسقط من روحي. تركني وراءه مغشيًا علي، على طاولة وسط الرصيف، والناس يتحلقون حولي، وانتهت قصتنا تمامًا كما بدأت....

بحالة إغماء وثلاث كلمات، في نفس المقهى، على ذات الطاولة، وفي حضرة الغرباء.

***

انتبهت أن الوقت سرقني شرودًا وأن زمن القهوة انقضى دون أن أحتسيها وأن الألم في لثتي يحتاج جرعة مسكن، وتنبهت إلى أن يونس يأبى مغادرتي، وأن أحزاني وخيباتي وآلامي حولتني إلى كتلة تفاهة لم تعلم يومًا كيف تكون محتشمة، وتستمر متدحرجة على تلة من المحاولات الفاشلة لتسجيل هدف في مرمى الذات.

من قال إن الخيبة درس والألم إبداع والحزن فضيلة؟

يا لكم الغباء المفزع القابع داخل جماجمنا والذي يتحكم بلا وعي منا بكل ما ندركه ونعيه على مر الحياة.

ساذجة تلك الادعاءات وموجعة حد الضحك فالخيبة والألم والحزن لاتصنع حكيمًا، لا تلد مبدعا، هي فقط مدعاة لإضافة متفلسف غر إلى رهط المستثقفين الذين يثقبون آذاننا بنظرياتهم المستنسخة عن الوجود.

للحب والسعادة فقط فضل الحكمة ولهما فضل الإبداع، فذلك الابتهاج الذي يغرقنا فيه الحب يصحح أخطاء مدركاتنا التي تلقيناها على مر التجارب فيتحسن سير سلوك اندفاعاتنا ونصبح قادرين على فهم الذات الداخلية لذاتنا بطريقة أعمق،

عندها لا يمسي الاشتهاء معصية، وتخلع الرغبة رداء الكبرياء وتصبح المتعة استحقاقًا للجسد.

عندما تسقط سهوًا في الحب...

لا تفكر، لا تعلل، لا تبحث، اعترف بضعفك، تباهَ برغبتك، ومارس جنونك إلى أقصى حد، غنِ، ارقص عاريًا، اركض على زجاج الدهشة المتكسر حافيًا، لا تخش جرحًا، فأنت عاشق وكل ما في هذا الكون متآمر لحفظ سلامتك...

اخلع معطف التقاليد واخلع تربيتك الدينية وخوفك وقلقك واخلع الله والأنبياء والرسل وابق عاريا إلا من الجنون.

لا تخش العيون الفضولية التي تراقبك والألسن الثرثارة التي ستحيك من الكلمات أقبح الإشاعات عن جنونك، فأنت عاشق ولا يعنيك في هذا الوجود إلا عينا من تحب ولن تصل إلى مسمعيك غير كلماته.

واكتب ؛ اكتب... حتى وإن كنت لا تتقن اللغة ولا تجيد نسج الحروف، وتفقد توازنك في حضرة فاصلة، ولا تميز بين الجملة وشبهها.

اكتب... فأنت عاشق وعدم قدرتك على الكتابة شبهة، وستتآمر كل الحروف والهمزات وعلامات الترقيم والقواعد الصحيحة منها والشاذة لتصنع منك مبدعًا.

لا تخجل... وطالب بحقوقك كلها، فالجسد من حقك، والعقل حقك، والمتعة حقك، والتعري حقك، والشبق حقك،والكل حقك، وأنت عاشق، فلا ترض بأقل من الكل.

وفي النهاية لن تكون إلا عاشقًا حكيمًا وناضجًا، عاشق موسوم بالجنون وصل سهوًا إلى سر الحكمة المجنونة.

هل تكفي عدة خيبات وتجاوزي الثلاثين من عمري وبوادر ضرس عقل والسقوط في حب رجلين يحترفان اللغة واقتراف جريمة قتل، لأتمكن من التلاعب بالكلمات ولو قليلًا.

كل ذلك بسبب عماد، لقد نقل إلي عدوى انتقاء الألفاظ، كما نقل إلي يونس قبله عدوى انتقاء المفاجآت، لقد أصبحت امرأة تتقن المفاجأة، تمارسها بشهوة كما لو أنها عادة سرية.

فليس منطقيًا أن أتعرض لكل تلك المفاجآت على مر سنيني دون أن أسرق من الحياة الوصفة السرية لإعداد طبق مفاجأة شهي.

الفصل الخامس

الكائن هو نشيد مدمر

سيوران

كم هو فادح جمال الكسل!

أتخيل الكسل كائنًا جالسًا الآن على عرشه، يحتسي كأس نبيذ ربما، يراقبنا ضاحكًا من ركضنا المستمر، ساخرًا بلهاثنا المتكاثف، منتشيًا بتعبنا وإرهاقنا، وغارقًا بكسله.

أوليس الكسل لحظات هاربة من توقيت الوجود المتسر بل دومًا بعباءة الحركة؟

من يريد أن يقضي حياته داخل عباءة؟

من يريد أن يمارس الاختناق المقترن بالنشاط المزمن!

لنأخذ نفسًا ونرتاح قليلاً...

لنتوقف عند تلك النقطة الفاصلة بين الموت والتعب، لنجز عشب الرتابة، ونرش طفيليات السعي الدائم بمبيد السكون.

الكسل هو لحظة لا مبتدئة، متكررة، مكررة، مرهونة بتقبلها كحقيقة سديدة ولا منتهية.

هو محاولة لوقعنة الركود الجميل...

هو محاولة لاعتقال الدقائق الخجلى المندسة في الزمن الهارب.

هو الفراغ الممتلئ.

هل وصل الأمر بي لدرجة مدح الكسل والتغني بفضائله اللذيذة علي؟ لم يعد ينقص إلا رفع صلاة شكر لجلاله. لا بد أن هناك حلًا، لن أقضي حياتي أستمع للموسيقى وأشرب القهوة وأحتسي النبيذ وأراقب الطريق من شرفتي وأشاهد نشرات الأخبار الساقطة لتتبع نتائج المؤتمرات والاجتماعات المعنية بالشأن السوري والتي تشبه عرضًا كوميديًا أكثر من كونها ملتقيات سياسية.

لن أبذر حياتي في الكسل والملل، سأقلع عن الكآبة، سأبحث عن حلول، كما يجب أن أستأنف رغبتي بالحياة فلن أبقى صريعة التشتت والشوق والانهزام لبقية عمري.

يجب أن Hالتقي عماد، سيجد طريقة ليصل بها إلي كما تسلل قبل شهر وجاء لرؤيتي، سأحاول إقناعه بفكرة السفر، فلا شيء نفعله هنا، لا شيء ننتظره غير الموت.

سأتحول إلى امرأه ثرثارة، تقليدية، متطلبة، ولن أفوت اتصالًا أو محادثة إلا وأتطرق لفكرة المغادرة، لن أتوانى عن بذل كل طاقتي في سبيل تحقيق هذه الغاية فأنا خائفة هنا، خائفة من عدم انتمائي إلا للحق، والحق شبهة والحق لا يقال.

خائفة من نفسي، من عامر، ومن أعداء عامر، وخائفة على عماد.

في الحقيقة لم تكن معادلة صحيحة تلك التي وضعها عماد، فقد آمن أن الحب ينتهي دومًا بخيبة وكل ما علي فعله هو الاستمتاع بالوقت السابق للخيبة. تضحكني هذه الكلمة "الاستمتاع "

كيف يمكنني أن أتعامل مع الشوق والغرام والبعد والخوف بوصفه متعة، وكيف بإمكاني التصالح مع هواجسي واحتمالاتي السوداوية كلما انقطع الاتصال وغاب عني صوته؟!

أي متعة هذه يا عماد؟

أية معادلة مستحيلة للحل تلك التي أقنعتني بها؟

أنت مخطئ ففي الوقت الذي سيسبق النهاية، سأتجرع مئات الخيبات وسأتجرع كؤوس خذلان لا تحصى لأصل إلى الخيبة الكبرى في النهاية ويمضي كل منا في سبيله.

وأنا لماذا أسمح لنفسي بأن أكون غبية وكسولة لهذا الحد، فحتى نظريات أينشتاين الأشهر قابلة للنقاش والمحاكمة والتغليط، فلماذا إذن أتعامل مع النظرية العمادية وكأنها مقدسة نازلة من السماء ولا يجوز التشكيك أو العبث بها...

لن أقبل بذلك، لن تكون بيني وبينه إشارة فاتحة فاهها على مصراعيه نحوه، سنكون طرفين تفصلنا إشارة=.

نحن متعادلان، متساويان، متوازيان، وسنناقش كافة النتائج الممكنة والنهايات المحتملة ولن أقبل أن أكون التابع بعد اليوم وسأصحح نظريتك الخارجة عن المنطق تلك.

وفعلا، هذا ما رحت أحاول إثباته على مدار ثلاثة أشهر. أحدث عماد مطولًا عن إيجابيات الدول الأوروبية، أبعث له صورًا ومقاطع فيديو في محاولة لإقناعه وكان جوابه يأتيني باردًا دومًا:

- أنا يا حبيبتي رجل قضية، لن أخذل الوطن، كما أن كاميرتي لن تكون قادرة على التعايش خارج حدود الحزن الذي اعتاد ته.

وفي الآونة الأخيرة بدأ يحاول إقناعي للالتحاق به وأداء واجبي بمعالجة الثوار، وأنا تجاهلت نداءه لأنني ما عدت قادرة على مزاولة مهنة الطب لخلل نفسي ولأنني أحلم بحياة أخرى بعيدًا عن القلق والدماء والخوف والرصاص وقذائف الهاون والبراميل المتفجرة.

هو يعلم أنني رافضة للقتل، معارضة لكل من يحمل سلاحًا، حاقدة عل كل قاتل تحت أية حجة ولكنه ومع ذلك لم يتوان في عرض رغبته كلما سنحت له فرصة.

لم تعد أحاديثنا تبدأ بأشتاق لك، وتنتهي بأحبكِ...

أصبحت تبدأ ب ماذا قررتِ؟ وتنتهي ب ما هو رد ك؟

وكنت أحب أن أشاركه كل نغم فأبعث له كل صباح أغنية رحبانية الألحان، فيروزية الصوت، وأجلس في حضرة فنجاني قهوة، أتخيل أنه هنا يشاركني متعة انعتاق البن والهال وذوبان الشوكولا الداكنة.

كان صباحي يبدأ منه وبه، ولم يعد يبدأ من هناك الصباح.

تحولت أحاديثنا إلى جدل لا ينتهي، وراح كل منا يلقي التهم على الآخر فأنا غير مسؤولة حسب وجهة نظره وهو غير مكترث بعلاقتنا وحياتنا حسب وجهة نظري، خيم الفتور على علاقتنا وتخندق كلانا، كل على ذاته، وبدأت الشكوك تراودني والأفكار الغريبة تقحم انفها في دماغي. طالبته بإتمام قصتنا، أعلنت التمرد، حاولت دحض نظريته الكئيبة وبذرت كل ذلك الصيف محاولة تكليل مساعيي بنجاح.

كنت على وشك اليأس عندما وصلتني رسالة منه في نفس توقيته الصباحي، كتب لي فيها:

حبيبتي.... هل تذكرين عندما أخبرتك أن كل علاقة عشق ستنتهي بفشل؟ ها نحن هنا يا ليلى، في مواجهة محتومة مع الفراق.

لن أبرر، لن أعلل، ولن أفسر، فكلانا يعلم أن طرقنا تقاطعت وأن المفترق أجبر كلينا على السير في الاتجاه المعاكس.

ليعلم الله أنني لم أرد ذلك، ليعلم الله أن مفارقة روحي أسهل علي من مفارقتك، ولكنني لست ملكي يا صغيرتي، فاعذريني...

اعذري رجلًا عشقك حد البكاء..

اعذري رجلًا، أنتِ حبه الأول والأخير، فقبلك لم يكن الحب إلا وهمًا وبعدكِ سيغدو مستحيلًا.

أعلم أن وجودي آلمك، أتعبك، وأثقل قلبك.

سامحيني يا ليلى... فلم تكن نيتي إيذاءك، أردت أن أهديك الفرح وأن أمنحك الابتسامة ولكن التوقيت خانني والوطن خانني والقضية خانتني كيف سأهديك الفرح في توقيت الحرب؟

كيف سأمنحك الابتسامة والوطن ينزف؟

كيف أستطيع إلى إسعادك سبيلًا وما مقصدي القضية؟

لا مكان للحب زمن الحرب، لا مكان للشوق وللهفة والشغف في توقيت خطف فيه الأرواح.

أرجوكِ يا ليلى، حاولي أن تقللي حزنك وأن تقلصي آلامك فرجل مثلي لا يستحق دموعك واكرهيني يا حبيبتي قدر

استطاعتك، تخيلي مواقف سيئة جمعتنا وصدقيها، صدقيها بكل ما أوتيت من خيال واكرهيني، فذلك أقصر طريق للنسيان.

لا تعودي لذكرياتنا، اطفئي ذاكرتك التي تمارس الاندلاع دومًا.

لا تسمحي للحنين أن يباغتك، كوني أذكى منه وأقلعي عن كل ما يذكرك بي، لا تعودي إلى مقهانا وطاولتنا، امسحي كل رسائلي إليك، احرقي صوري، مزقي كل قصائدي ولا ترقصي ثانية على أنغام التانغو، ولا تنتظريني..... فلن آتي.

قبل رسالته كنت على شفا يأس، وبعدها أصبح اليأس وجعًا محتومًا.

كنت قد عشت طويلًا على قيد احتمال الفراق وهاهو الاحتمال يغدو حقيقة لذلك لم أتفاجأ بما قاله ولم أحزن ولم أبكِ ولم أشعر بضيق.

كانت مشاعري حيادية حد اللامشاعر وأحاسيسي كانت منتظمة كما لم تكن قبلًا وشعرت بالغرابة من الإحساس الذي انتابني بعد قراءة رسالته فقد شعرت أن حملا قد أزيح عن قلبي وأن عبئًا تنحى عن روحي.

كل ما بي كان حياديًا، وكنت واقفة على النقطة الفاصلة تمامًا بين الخلق والعدم.

وها قد انتهى كل حب وعدت وحيدة من جديد، خالية من كل رغبة عدا رغبة صارخة بالانتهاء...

سأنتهي من كل شيء ومن كل احد ومن كل مشاكلي العالقة.

سأتفوه بكل الكلمات المحتقنة في حلقي، سأتقيؤها إلى الخارج، فلن أبتلعها ولن أسمح لها أن تشكل غصة في حنجرتي.

أولًا، سأنتهي من إجراءات سفري ومن ثم أذهب إلى عامر وأحاول لمرة أخيرة معه مع درايتي بأنه لن يستجيب فمنصب مدير السجن الذي تولاه يغريه بالبقاء هنا ولكن المحاولة الأخيرة مطلوبة دائمًا لتكون حجة في مواجهة الضمير لاحقًا.

سأودع شيماء، وأمي في قبرها، ثم أغادر.

بعد شهرين....

أتى الخريف إذن، وأي ألم يخبئه لي!

يا فصلًا أشبهه حد الجنون ويشبهني حد الثمل.

يأتيني مواربًا بين احتمالات النسيان، يفتح الباب على ذاكرتي قليلًا ويرش بضع حبات مطر وبعض رائحة سحرية من تراب لينبئني بقدومه، وأنه علي الاستعداد لاستقباله.

وككل عام، منذ عدة أعوام..... أستقبله بغصة، غصة عاشقة وغصة مفارقة. يأتيني معاتبًا، كيف لم أنتظره في مطار الفصول، يسألني:

- أنسيتِ ما كان بيننا؟

أخنتِ عهدًا من الصباحات الندية والأوراق المصفرة والأرصفة المتعبة؟

يتجول في أرجائي كمن يبحث عن ضالة، ينظر في عيني ويسأل:

- أين القهوة وباخ وفيفالدي والفصول الأربعة والياسمين؟ ومن هؤلاء الغرباء الذين يتسكعون بلا حياء داخلك؟ أسمع أصواتًا، ضحكات، ثرثرات، وشوشات، بكاءً ونحيبًا.

أتى الخريف إذن...

حاملًا في حقيبته حفنة ذكريات.

أحاول جاهدة التهرب منها وتنفيذ وصية أحدهم حيث قال لي:

"كوني أذكى من الحنين".

والآن أدركت أن الذكاء لعبة مبتذلة مع الحنين، ففي مواجهة الذاكرة لا نحتاج إلا للإرادة، وكلنا نملك الإرادة وكلنا أقوياء وكلنا قادرون على اكتساب زهايمر انتقائي ولكن أحدًا لا ينسى، ليس لعدم قدرتنا وإنما لأننا لا نريد أن ننسف أنفسنا ولأننا لا نحاول النسيان بنزاهة.

وها أنا هنا، على شرفة منزلي برفقة فنجان قهوتي الذي لا يفرغ، وأغنية لفيروز وطقس خرافي أشعر وكان الطبيعة تقدمه لي كهدية وداع...

صباح دمشقي، في توقيت المرة الأولى لكل شيء...

هذا أول مطر لأيلول، أول عري للأشجار، أول انكسار للأوراق، أول نحيب للطيور، وأول رحيل لي.

لم يأتِ أحد لوداعي فعانقني الكون حتى التوت مشاعري وقدمت لي الطبيعة هدية فاخرة بهيئة طقس يعلن البدء من خلال تنفيذ وصية الموت المحشورة في بذرة الرغبة الأخيرة.

أحاول التلصص على كل شيء، حتى على حجارة الرصيف المنكسرة التي تزعجني كلما تعثرت بها سهوًا، ألحظ خطى المارة المتراكضة، ليس خوفًا من مطر قد تمن علينا به السماء وإنما خوفًا من مطر قد تمن علينا به الأجواء الملتهبة.

ألحظ النساء على النوافذ وقد طغى على ملامحهن خوف وريبة وهن يراقبن أطفالهن النازحين إلى مدارسهم.

كل هذه التفاصيل لم أكن أنتبه إليها قبلًا ولكن الآن وأنا على شفا سفر تغدو ملاحظتي فتاكة.

اليوم عند منتصف الليل سأرحل دون أن أنظر ورائي، سأمضي إلى عالم آخر أحاول فيه إعادة إعماري.

أنهيت كل ما يتوجب علي فعله، أوراقي جاهزة، وضبت حقائبي،ولم يبق بيني وبين الطائرة غير موعد في توقيت الغروب مع رجل تجرعت بحجته كأس الخذلان الأول.

وعلى هذا الموعد تعمدت الوصول قبل الوقت ببضع دقائق لرغبتي باكتشاف العلاقة التي تربطني بذلك المكان بعد فراق عام كامل.

طالما أحببت ذلك المقهى ووجدت فيه سكينتي وبعد ذلك وجدت فيه حبي الأول الذي تحول فيما بعد إلى وهمي الأول، لذلك وبعد مضاجعة الوهم أقلعت عن تبذير فترات الاستراحة ووقت الغروب هنا ونبشت عن مقهى آخر لا ذاكرة له.

جلست إلى طاولتنا نفسها بصحبة طقس مشابه لطقس اللقاء الأول واللقاء الأخير. هذه الطبيعة الساقطة تضعني دومًا

في مواجهة لا مفر منها مع نحيبها الخريفي، فتئن السماء، ويئن الرصيف، وتئن عدة نساء داخلي وينتحب الكون أجمعه في عزاء الزمن.

قبل خريفين، وفي هذا المكان بدأت قصتي مع رجل المفاجآت ذاك.

وقبل خريف، وفي هذا المكان فاجأني نفس الرجل بإنهاء القصة.

وفي حضرة الخريف. وفي هذا المكان أنتظر ذات الرجل الآن.

لماذا أتيت فما من شيء يهمني الاستماع إليه وما من شيء يثير فضولي لمعرفته!...

لماذا وعندما وصلتني رسالته المختصرة جدًا لم أردها باعتذاري؟

بدأت الذاكرة تتلوى كعاهرة لقيطة في سرير الأمس، مرت قصتي معه على مخيلتي كلمح اللهفة، ثوان قليلة وصور مقتطفة وكلمات جافة كانت كفيلة بفتح صنابيري الدمعية.

ولكن لا، لن أبكي، حاولت بعزم التكتم على دموعي وتحطيم تمثال الحنين المبني داخلي والذي يعاملني كعبدة.

وها قد وصل...

جلس قبالتي دون أن يلقي التحية. وصل في توقيت دمعتي المخنوقة التي منعتها من الانسدال ومنعها قلبي من العودة إلى مسقط ملحها،وتزامن ذلك مع تفتيتي للكثير من المحارم الورقية إلى قطع صغيرة.

وتستمر الطبيعة في عهرها فتهمي حبات مطر قليلة بيننا...

ساد الصمت لوقت ليس بقصير، تشاغلت عنه بمتابعة مشهد الشمس المحناة بالألق وقت الغروب، وكنت ألمح نظراته ترمقني بخجل.

لم أسأله عن شيء ولم أرغب بتفسير أو تبرير فقد جئت إلى هنا محملة بكل لا شيء الدنيا. كسر زجاج الصمت قائلًا:

- لو بقيتي ضائعة في تاريخي، كان أحب إلي من أن أجدك ولا أعرفك. أنا الآن لا أعرفكِ، لقد تغيرت وتغير فيك ذاك القدر الذي كان يراقص النار في ذاكرة الأمنيات.

لا زال هذا الرجل يمارس نفس اللغة، يبدو أنه لم يتطور، أضحكتني هذه الفكرة وبدا عليه الانزعاج من ضحكتي، قلت له:

- هل تذكر ذلك اليوم عندما قلت أحبك. قلت لك تلك الكلمة وأنا مملوءة بكل ثمالتها وحرارتها وعبثها وجنونها وعمقها. انتظرت طويلا حتى أجدك تمامًا كما كتبتك في دفاتر مراهقتي، كما رسمتك على أشرعة سفني التي حطمها غيابك، كانت الحياة معك سرقة حقيقة من خلود الزمن، فكرت أنك ضعت عندما غبت وعرفت بعد ذلك أنني التي ضاعت مني بعدك.

لمحت سعادة تعتلي ملامحه عندما بصقت هذه الكلمات في وجهه، فاستطردت:

- لم أقل لك ما قلته إلا لتدرك مدى فجيعتي بك، هكذا حب، تكون الخيبة بعده بحجم الكون.

كان على وشك الإدلاء ببعض المبررات عندما قاطعته قائلة:

- أرجوك، لا تكمل، فأنا لست الطفلة المغفلة التي تركتها، لم اعد صغيرتك.

بدا عليه التشتت بين امرأة اعترفت له قبل قليل أنها عشقته بجنونوبين أخرى غير مهتمة بمعرفة سبب اختفائه فاختصر تشتته بسؤال ساخر بنبرة مستهترة، قال:

- لم أفهم منكِ الآن، هل تكرهينني أم تحبينني ونبرتك القاسية هذه بفعل العتب؟

تنبهت إلى أن الثلاثين دقيقة التي خصصتها لهذا اللقاء شارفت على الانتهاء وأنه يتوجب علي المغادرة، قلت له وأنا الملم حاجياتي:

- لا، بالطبع لا أكرهك.

واقتربت منه حتى باتت عيناي في مرمى عينيه وشفتاي على مقربة من أنفاسه، وقلت له : ولا أحبك أيضًا.....

ومضيت دون التفاتة.

أتيت إلى هذا اللقاء وأنا على دراية بأنني لن أصغي إليه ولن أؤنبه ولن أواجهه بعذابي بعد غيابه غير المبرر.

قطعا، لم أعد أحبه، لأنني وبكل بساطة لست ليلى التي عشقته قبل عامين. أنا الآن ليلى أخرى تمخضت عن الفجائع الجديرة بالولادة.

لذلك كان هذا الرجل غريبًا عني اليوم وما كان قدومي إلا للانتهاء منه.

طلبت من السائق أن يقود على مهل، لسعني الهواء المتسرب من النافذة وأعادني هذا النسيم عامًا إلى الوراء، إلى التوقيت الموالي لموعدنا الأخير.

أذكر، بعد ذلك اللقاء، بقيت شهرين عالقة بين السرير والحمام، شهران ومعدتي تأبى الإقلاع عن تشنجها، وعيناي لا تعانقان النوم إلا تلبية لرغبة جسدي في البقاء، تكدرني أسئلة أمي التي لا تنتهي، ويؤرقني صمت عامر المهين وتزعجني مثابرة شيماء في اختراع حيل مسكينة لتخرجني من حزني ومرضي، ولا يمضي يوم دون أن تسبه وتشتمه وتذكرني بأنها حذرتني ذات بارحة وأخبرتني بأنني لن أرث منه غير الوجع، وأنا بقيت أدافع عنه، أبحث له عن مبرر علِّي أجده. كنت متأكدة انه رحل لسبب جلل ولولا ذلك فما من قوة على سطح الكوكب يمكنها الحول بيننا.

أذكر عينيه جيدًا عند غروب ذلك اليوم، كان أكثر وجعًا مني وأكثر ألما وأكثر غضبًا وأكثر حنقًا وأقل حيلة، وقال لي :

'أكملي القصة وحدك – '.... ومضى.

طالبني بإتمام القصة وهَو يدري تمامًا أنني لا أجيد التأليف ولا أحب القصص، وأنني أغرق بين جملتين وفاصلة ولا أتقن

التفنن في انتقاء تفاصيل البدايات ولا يمكن للنهايات إلا أن تكون معتوهة معي.

طالبني بإتمام القصة وهو الشاهد الوحيد الذي تداعى في موجة من الضحك الساخر عندما أخبرته أنني لا أستطيع التفريق بين الجملة وشبهها وأنني لم أعرف يومًا كيف يقدمون الخبر على المبتدأ، وكيف يعربون الأحداث ويعللون الفراق. وهو أيضًا الرجل الوحيدالذي يعرف بمشكلتي الأزلية مع الهمزة، هذا الرسم الصغير الذي يشبه جرثومة الكوليرا، ويعلم أنني مهما حاولت فلن أصل إلى تسوية معها، فأنا أكرهها لأنني لا أفهمها.

لا أفهم متى تكون مقطوعة أو موصولة، تزعجني بغرورها وهي تتموضع كقبعة مهرج فوق الألف وتثير قرفي عندما أراها متكئة بدلال عاهرة على ناصية الواو وأمقتها عندما ألمحها مزروعة تحت مسمى نبرة، ولكم أشتهي محوها عندما أضبطها مندسة آخر الكلمة.

قال لي : " أكملي القصة وحدكِ"

وهو يدري أن خيالي جدب جدًا وأن تركيبة دماغي قد تتأقلم مع ذرات النتروجين وأيونات الصوديوم ولكن قطعًا لن تتفق مع جمل تبدأ بأداة استفهام وتنتهي بإشارة تعجب....

وها هو اليوم يعود ليستأنف القصة معتقدًا أنني لا زلت بانتظاره.

لا يا سيدي....

ليلى تلك انتهت، وأنا اليوم امرأة أخرى..

امرأة تجيد التأليف بلغة فاخرة وأحداث نزقة....

امرأة متجهة إلى محطتها الأخيرة في هذا الوطن لتبدأ الحياة غدًا في مكان آخر.

أنا اليوم امرأة بخيال خصب يا سيدي...

وسأكمل القصة وحدي.

الفصل السادس

ثم ماذا لو كتبت اسمك في كفي، ولملمت أصابعي، هل ستمطر المدينة، وهل سأراك!

واسيني الأعرج

أنا هنا، في هذا المكان المهندس خصيصًا للحزن، بأرصفته الضيقة المرصوفة بحجيرات مربعة سوداء وقد استلقت عليها وريقات شجر قليلة تصارع النهاية بأرق.

أنا هنا، على قارعة الطريق العريض الخالي إلا من بعض السيارات المسرعة التي لا أعرف وجهتها وغايتها وحالتها النفسية..

ولا أحد يشارك السيارات اضطرابها غير المارة، بعضهم يحمل مظلة وغيرهم يسيرون بخطى متسارعة خوفًا من مطر قد يهطل بعد قليل، وبعضهم يسيرون باعتيادية فائقة، تفوق قدرة الطقس على مفاجأتهم..

أجلس إلى الطاولة على الرصيف خارج المقهى غير آبه بالمطر القليل الذي يتسكع هنا ويلاطف كوبي قهوة، أحتسي أحدهما على مهل أما الآخر فلم تترحم به ليلى وتطفئ امتلاءه لو برشفة.

ثمة أنا والطقس والمكان والوقت وبقايا موعد انتهى بما لا أشتهي، فقبل ساعة من الزمن المضحك، جلسنا في زاوية مقابلة لليأس بأمل، تفصل بيننا طاولة مستديرة تحوي علبة مناديل

ومرمدة سجائر،كأسي ماء، كوبي قهوة وقطع سكر وقطع شوكولا.

رحت أراقبها بعينين مكتئبتين أضناهما الشوق والندم وهي تنسل منديلًا وراء آخر، تفتته وترميه دون وعي.

لاحظت الدمعة المخنوقة بين جفنيها، تباطؤ أنفاسها، ثبات أصابعها وثبات نبضها المستفز هي التي كان يرفرف قلبها كعصفور عندما يجمعنا لقاء. اليوم نحن على شفا لقاء وكل ما حولنا متآمر علينا، الشمس التي تتلوى احتراقا عند عتبة المغيب، النوارس التي تهم بالتحليق على شفة السؤال، نسائم الخريف الأصفر، خطوات المارة المتسارعة التي تشكل رتمًا موسيقيًا محببًا، ثم حبات مطر قليلة تهمي بدلال بيننا.

على أحدنا أن يبدأ الحديث أو العتب أو الشتيمة أو السباب فكل الكلمات الخارجة عن اللباقة مباحة في موقف كهذا، كلانا ينتظر من الآخر أن يفض بكارة الكلمات ويلج إلى العمق، كلانا ينتظر لحظة انتشاء الحقيقة، ولكن ماذا عساي أقول لها بعد أن خذلتها وتركتها عامًا كاملًا تكابد الألم وحيدة، أدركت أنني كنت أنانيًا وأنني لم أعرفها كما يجب.

أيقنت أنها أقوى مما اعتقدت، برهنت على ذلك من خلال تعاطيها مع موقف الفراق فلم تتصرف كما تفعل النساء عادة، لم تتصل بي ولو لمرة واحدة، لم تأتِ إلى منزلي لتطرق بابه، لم تسأل عني ولم تحاول تتبع أخباري وتابعت حياتها كما لو أنني لم أكن وهذا أمر أزعج كبريائي، وهي أمامي الآن، نظراتها تخترقني بلا مبالاة وكأنها لم تأت إلى هذا الموعد إلا لتسمع ما سأتفوه به من حجج ولتقول لي في النهاية إنها لا تصدقني، وكأنها جاءت لتعلن تخليها عني كما فعلت أنا قبل عام. ولأنها لم تأت بالهيئة التي تصورتها، أضمرت ما كنت قد جئت لقوله.

لقد تغيرت كثيرًا، وكأنها تحولت من طاووس مسالم إلى لبؤة شرسة أو كأنها تحولت من كرزة ندية إلى ثمرة صبار شائكة،

فقد ت الكثير من وزنها وباتت شاحبة بعض الشيء وهذا الوهن يجعلها أكثر إثارة من ذي قبل عندما كانت حبة دراق فجة، وحل شعر كستنائي قصير ظاهر للعيان مكان شعرها الأسود الطويل المخبأ.

لقد تخلت عن شالاتها الملونة وعباءاتها الكثيرة ومساحيق تجميلها اللطيفة، واستبدلت كل ذلك بطلة أنيقة خالية من أي تكلف.

أ خذت بجمالها الباهت فلم أنتبه إلى جثة الصمت الممددة بيننا فقررت أن أشيع الجثة إلى مثواها الأول، كسرت حاجز الصمت، وكسرت ليلى حاجز اللغة، تراشقنا عدة جمل كأطفال يتراشقون الحجارة بغضب وفجت حجرتها الأخيرة قلبي عندما أنهت حديثنا ب لا أحبكَ.

ومضت في ذلك الطريق تمامًا كما جاءت محملة باللاشيء، وخلفتني وراءها محملًا بكل شيء. لم تعطني فرصة لأخفف من هذا الحمل الذي أثقل ذاكرتي، أتيت لأخبرها الحقيقة المطوية على النسيان منذ ثلاثين عامًا، أتيت لأعتذر منها وأطلب المغفرة ولكنها لم تمنحني وقتًا وبقيت هٰهنا جالسًا برفقة الغروب تعتريني لسعة حنين تذكرني بما قاله كونديرا ذات رواية" إن غيوم المغيب البرتقالية تضفي على كل شيء ألق الحنين، حتى على المقصلة"

قبل عامين.....

طلبت قهوة وهممت بمطالعة جريدة محلية بانتظار نزار حسب موعد بيننا عندما وردني اتصال من هيلين:

-آلو.

- أين أنت؟ اتصلت بك عشرات المرات منذ الصباح ولم تجب، عندما أحتاجك لا أجدك.
- كنت مشغولًا، ما الأمر؟
- لا أجد فارس، منذ البارحة لم يأت، أخبرني حسام أنه فقده البارحة بعد تفريق مظاهرة شاركا فيها.
- ألم أقل لك أن تبعديه عن مثل هذه الأمور.
- وكيف أبعده، هو لم يعد طفلًا صغيرًا كما أنه ورث عناده عنك، أنا غير قادرة على التأثير عليه.

حسنًا، لا تقلقي، سأتصرف.

شعرت بخوف رهيب عليه فأنا على دراية بما يحدث داخل تلك الأقبية،انتابني شعور دفين أنني فقدته. أغلقت عيني في محاولة للتفكير بهدوء بما يجب علي فعله وانهالت علي الأفكار مزدحمة، عدة أسماء تشابكت في دماغي يمكنني الاتصال بهم وطلب خدمة وتحسرت على أبو نزار فلو كان هنا لتمكن باتصال صغير من حل مشكلة فارس، ولكنه رحل ولم يبق منه غير نزار يتحمل وزر الخطايا.

شعرت بدوار طفيف، فتحت عيني، لأجد ذلك الرجل بلباسه الأسود مقابلا لي، يجلس على كرسي في زاوية المقهى

يطالعني باستهزاء وشماتة، عندها زاد الدوار وشعر ت أن رأسي ثقيل جدًا ولم أعِ ما يجري حولي وسمعت صوتًا أنثويًا يقول بارتباك أحضروا ماء وسكر، وفتحت عيني بعد دقائق ربما وإذا هي ترمقني بحيرة ويدها ممسكة يدي تتحس نبضي، سحبت يدي من بين يديها وقلت :

- أنا بخير.

وعدلت جلستي وانصرف الناس الذين كانوا قد تجمعوا حولي عندما أغمى عليّ، أما هي فلم تمنعها لهجتي المنزعجة من الجلوس قبالتي وقالت:

- لقد نزل ضغطك، هل ثمت دواء تأخذه عادة ونسيته اليوم؟
- لا.
- هل تناولت فطورك؟
- لا
- هل أخذت كفايتك من النوم؟
- لا
- هل....

قاطعتها قائلا:

- ما بكِ؟ لو أنك طبيبة ما سألت كل هذه الأسئلة، اتركيني وشأني لو سمحتِ.

قالت بعصبية:

- أريد الاطمئنان عليك فحسب.
- شكرًا.... أنا بخير.

ووصل نزار وقطع حديثنا المضطرب ولكن الاضطراب استمر عبر حديث آخر عندما أخبرته بمشكلة فارس فاقترح ألا أتصل بأحد، قال:

- لا تحاول يا صديقي، فأنت لست من ملتهم وأموالك لا تغريهم الآن، التعصب للملة والمذهب أعماهم، أنت الآن لست يونس الصديق المقرب ولست الرجل الثري الذي يطمعون بثروته، أنت الآن مجرد نكرة من خارج ملتهم وقد تورط ابنك في جريمة العصيان، فلا أمل ترجوه منه.
- لو كان والدك هنا!...
- لا أعلم، ربما أبي أيضًا من الأشخاص الذين لا يعول عليهم فأبي رجل مصلحة في المقام الأول ولن يقدم على فعل قد يضر بمصلحته..... وأضاف بعد دقيقة صمت:

لقد حصل والدي على كافة أوسمة الشرف والمثالية في حياته.

قبل الثورة كان الرجل الوطني الفذ الذي يؤثر مصلحة بلاده على كل شيء وكل أحد، وها هو اليوم مناضل باسم الثورة في مدن الملح، غادر سوريا منشقًا، مدافعًا عن حقوق أبناء البلد وكرامتهم حسب قوله، وهنا أيضًا هو رجل وطني بامتياز هو غادر، وأنا بقيت هنا وثمت من يلاحقني بصفتي ابن أبي نزار رجل الحكومة، وثمت آخر يلاحقني بصفتي ابن أبي نزار الرجل الخائن المنشق.

- ولماذا لا تغادر يا نزار، ما الذي يبقيك؟
- إن غادرت دمشق فهي لن تغادرني ولا حمل لي على مناطحة الغربة.
- ولكنك في خطر هنا.
- الخطر الذي أحياه هنا أحب إلي ألف مرة من أمان وهمي وطمأنينة باردة. في دمشق يغدو كل شيء جميلاً حتى الخطر والخوف لهما مذاق خاص هنا لا يسعني فقدانه.

لم أناقشه في أفكاره، فالعشاق لا منطق لمعتقداتهم وهذا الرجل غارق حتى نخاعه الشوكي في حب دمشق.

غادرني نزار وبقيت برفقة شريط موسيقي من الذكريات يمر أمام أذنيّ، صاخب ومتسارع حينا، هادئ ومتباطئ حينا آخر، ومتمردًا في كل الحالات. علي الآن أن أفتح دفاتري، أن أنثر أوراقي وأفضح تلك المجلدات المرتبة في عليّة الأمس.

كنت أعتقد وهمًا أن ذاكرتي رشيقة، خفيفة، فارغة إلا من بعض الصور وكابوس وشبح ولكني اكتشفت أنها ثقيلة وممتلئة حتى بسفاسف الأحداث التي لا ينبغي لذاكرة أن تحتويها.

اختفاء فارس المفاجئ أعادني عقودًا إلى الوراء، أعادني إلى طفولتي بل إلى ما قبل طفولتي، أعادني إلى رحم أمي المظلم

بحثت واتصلت وفتشت ولكن لا معلومة عنه، اختفى فارس وكأنه لم يكن، ولم يبق لي غير الأمل أتمسك به، أنا كغريق، وهو كقشة.

بعد عدة أيام عدت إلى ذلك المقهى طلبًا للهدوء، رأيتها هناك تطالع كتابًا بشغف، بدت وكأنها غارقة تمامًا بما تقرأ، اقتربت منها واستأذنت بالجلوس وهي أومأت بالموافقة، قلت لها:

- أعتذر، لقد كنت صلفًا معكِ المرة الفائتة.
- لا بأس، حصل خير.

- يبدو أنك تأتين إلى هنا كثيرًا!
- يوميًا تقريبًا في موعد استراحتي.
- وماذا تعملين؟
- طبيبة...
- طبيبة ! لا يبدو عليكِ ذلك.
- وهل للأطباء علامات مميزة؟
- للطبيبات علامات مميزة.
- مثل ماذا؟
- الجمال ليس من صفات الطبيبات، القراءة مثلًا، الارتباك ربما.

وراحت تدحض أمثلتي وتأتي بالحجج وتجر البراهين وأنا لم أكن أسمعها فقد كنت مشغولًا بمراقبة جمالها المسكين المخبأ تحت عباءة سوداء طويلة وتخيلت كم أنها ستكون شهية لو أن جسدها كان حرًا واعتقدت أن لشعرها المخبأ تحت الشال لونًا أشقر بناء على بياض بشرتها الملفت.

وتتالت اللقاءات بيننا، عرفت عنها كل شيء، من هي، من أهلها، كيف تفكر، بماذا تحلم وماهي رغباتها وهواجسها وأفكارها، وهي لم تعرف عني إلا ما أردت لها أن تعرفه.

شهران ونصف كانا كافيين ليغرق كل منا بالآخر وهذه المرة كان غرقي حقيقيًا، حقيقيًا جدًا، ليس تهيؤات كما حدث مع هيلين وغيرها من اللواتي اكتشفت أن غرقي بهن لم يكن أكثر من رغبة بالغرق وأن مغامراتي معهن كانت أشبه بمغامرات روبن هود الطفولية...

أما مغامرتي الوحيدة فاسمها ليلى، كالألم هو حبها، كالوجع الذي لا مسقط رأس له، كالمعصية التي لا ذنب لها غير أنها مغرية.

أيقنت الآن أنني لم أخض قبل ليلي إلا معارك صغيرة وأنني بذرت كل طاقاتي في بضع أوهام وها هي الآن حربي، حرب غريبة ضد من أحب لأكسب بعضًا من ذاتي فما عاد بالإمكان استعادتي كما كنت قبلها.

ومضت الشهور.... لقاءات شبه يومية، ثرثرات كثيرة، وأحاديث مطولة، راحت تخبرني عن أبيها الذي لم تره يومًا، عن امها المناضلة في ميدان الحياة، عن طفولتها الشقية في سهول حماة وعن عشقها للنواعير وعن أخيها الذي انقلب فجأة من رجل يحب الرقص والموسيقى ويترقب كل أفلام توم هانكس الذي يفضله ويصطحب ابنتيه لتعلم رقص الباليه وابنه لتعلم عزف

القانون إلى رجل منطوٍ ومنزو - عن العالم وكيف أنه منذ بدء الأحداث قد تحول إلى شخص آخَر، بات قاسيًا ومهزوزًا كما لو أن شبحًا يطارده أو كما لو أنه يعيش قيد كابوس. كانت تحدثني عن أحلامها التي لا تنتهي وتقول بأنها تشعر كما لو أنها مربوطة بحبل سري بصفة طالبة لذلك راحت تدرس اللغة الإسبانية بعد تخرجها من كلية الطب وكنت اعجب من قدرتها على التوفيق بين عملها ودراستها وواجبها كابنة بارة لأم مريضة معظم الوقت وبيني. عرفتني على إحدى صديقاتها التي عرفت منذ لقائي الأول بها بأنها ستحارب علاقتنا فهي لم تحبني تمامًا كما كرهتها، وليلى كانت تبث لي قلق شيماء وأخبرتني أنها تحذرها مني وتقول لها بأنني لن أهبها غير الوجع وأنا كنت أضحك واطمئنها.

أذكر المرات التي زارتني فيها في بيتي،،،،

المرة الأولى كانت بداعي الفضول، أرادت أن تعرف عنواني وعندما وصلنا للبيت دعوتها للدخول فتعللت بمرة أخرى.

وفي زيارتها الثانية أهدتني قبلة بمساحة ليلة رغبة كاملة...

كان ذلك في صباح شتوي بارد، المطر يقرع بلور النافذة ويد ما تقرع بلور بابي بإلحاح، ووراء الباب كانت هي، إلهة هاربة من

مدن الإغريق، وردة مبللة بدموع السماء، كانت هي بكل أنوثتها وسحرها وتفردها. وقفت مستغربًا دون كلمات، اقتربت نحوي، أغلقت الباب بحركة خفيفة من قدمها واجتازت الخطوة التي تفصلها عني وبعفوية مفرطة ارتمت إلى صدري وعانقتني.

بين المفاجأة والحيرة والحب والشهوة، أبعدتها عن جسدي وسألتها:

- كيف أتيتِ؟

- تأخر موعد امتحاني للواحدة ظهرا ووجدت أن خير مكان أبذر فيه الساعات الثلاث الفائضة هو حضنك...

جلست على كرسي خشبي بعيد عنها وسألتها:

- كيف وصلتِ إلى هنا؟ ألم تقولي إن بيتي بعيد وإنك تتوهين بين شارعين على حد تعبيرك؟

أجابت وهي تخلع معطفها الطويل بعد أن رفعت شالها:

- إنها الحاسة العشقية.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها شعرها تفرده أسود محنى بالليل، اقتربت نحوها، أمسكت إحدى الخصلات المتمردة

ورحت أستنشقها كعطار يكتشف الأريج البكر لعطر جديد، وقلت لها:

- توقعت أن يكون لون شعرك أشقر، كستنائيًا على أقل تقدير،يبدو أن بياض بشرتك – خدعني.
- الحب مثل الحرب، خدعة.
- وهل يعني هذا أنك – تخبئين لي مزيدًا من الخدع؟
- من مثلك لا يخدعون، هم الخادعون دومًا.
- تتحدثين بحسرة وكأنكِ تجرعت مرارة خدعة قدمتها لك !
- نعم، لقد خدعتني، خدعني مظهرك المتعالي، حضورك المتكبر وحربك على الموروث، ظننتك ستكون عاشقًا على قدر جرأتي...
- -يعرف أحدنا الآخر منذ شهور قليلة فقط وهذا ليس الوقت الكافي لتكتشفي إن كنت على قدر جرأتكِ أو لا، ومن ثم لا أفهم عن أي جرأة تتحدثين فأنا لم أرَ شيئًا من جرأتك المخذولة بتقاعسي تلك.

تغيرت نبرتها وسألت بجدية وعصبية:

- ألا تشتهيني؟

- ما هذا السؤال المهترئ، طبعًا أشتهيكِ، لن تكون رجولتي بخير لو أنني لا أفعل.
- أشك أنها بخير حقًا فأنت لم تبذل ولو محاولة لقطف قبلة، ممَّ أنت خائف؟
- حبيبتي، لست خائفًا من شيء ولكنني فقط أكتشف مقدار حبي لك - بتأن. فأنا أتعامل معكِ كما لو أنكِ فتاة مراهقتي، أحَاول اكتشاف الشهوة معك كما لو أنها محاولتي البكر.

قالت وقد ارتمت في حضني :

- أنا فتاتك الأولى إذن...
- أجل.

لم تعلق، ساد الصمت لدقائق، كانت تفكر بشيء ما وأنا كنت أراقبها في حالتها تلك بتأن، ثم غادرت حضني ومضت لتعد قهوة.

باغتتني متسائلة وهي تقدم لي القهوة:

- بماذا أنت شارد؟
- أنا شارد بكِ.... عنكِ.

ولم أخبرها أنني شارد بذلك الرجل الواقف وراءها، يراقبها كظلها ويلاحقها كيفما تنقلت. قلت لها مستأنفًا:

إنها الثانية عشرة، أعتقد أن عليك الذهاب.

- وأعتقد أنك ستقلني.

ذهبت لأرتدي ملابسي وعدت لأجدها وقد عادت إلى هيئتها الأولى، محتشمة، خجولة، وبريئة.

رمقتها بنظرة عابرة وضحكت، قالت محتجة:

- وما الذي يضحكك الآن؟
- هذه البراءة التي تعنون ملامحك، أنت أشبه بالبحر الذي يبدو هادئًا ولكن الطبيعة تطهو في أحشائه أشهى الأعاصير.
- أ ولا يروقك أن أكون بحرك بكل تناقصاته؟
- بلى يروقني حد الخوف.

نبهتني إلى أنه علينا الذهاب كي لا تتأخر على امتحانها، سألتها:

- لماذا تدرسين الآن وأنتِ طبيبة منذ عامين؟
- الطموح مثلًا...
- في العالم الثالث، كيف تحلم النساء؟

سألتها وقد كنت على وشك فتح الباب عندما أمسكت يدها يدي، نظرت في عيني كما لو أنها تكتشف لونهما وأرادت بنظرتها تلك أن تعري رغبتي بها، وأن تعريني أمام نفسي، قالت: أحبك، وطبعت قبلة سريعة على شفتي. اكتفيت بالابتسام وعاودت يدي طريقها إلى مقبض الباب عندما شلت حركة يدي يداها، سألتني :

- ألم تربكك قبلتي السريعة؟
- وصلت إلى عمر لا تربكني فيه القبل.

اقتربت مني أكثر تجتاحني بنظرة مراوغة، شبكت يديها حول عنقي كما يطوق طفل رضيع أمه، عيناها في عيني، وشفتاها تزحفان بإصرار نحو شفتي، شعرت أنني مخدر وأنني غير قادر على الحراك، كما لو أنها تجنزرني بقيود خفية وسألت:

- ما الذي قد يربكك إذن؟

وقبل أن أجيبها كانت شفتاها قد عانقتا شفتي وراحتا تشعلانني، تلتهمان كبريائي، ترتقيان بي إلى مرتبة رجل فوق حدود الرجولة وفي ذات الوقت تنحدران بي إلى أقصى حدود حيوانيتي وكأنها تتحدى اتزاني ووقار رغبتي وتثبت لي بقبلتها ضعفي أمامها.

انسحبت من بين شفتي ببطء شديد، ثم اكتفينا لثوانٍ بتبادل النظرات، نظرتها كانت نظرة انتصار، ونظرتي كانت نظرة انبهار وهمست في أذني قائلة:

- لا أريد أن أكون فتاة مراهقتك أو امرأتك الأولى، أريد أن أكون امرأتك الأخيرة التي تعيش معها ثمرة كل تجاربك السابقة، فأنا لا أحبذ رجلًا غرًا ولا يغريني المراهقون.

أريد أن أكون ثمرة البرتقال الأخيرة في سلتك.

بعد تلك القبلة اكتشفت مذاق شفتيها وعذرية ثغرها، فتلك القبلة رغم كل أعاصيرها كانت بدائية ومبتدئة، وارتباك شفتيها المخبئ وراء جرأة حاولت جاهدة ابتكارها كان كافيًا لأدرك أن هاتين الشفتين لم تطأهما شفتا إنسان قبلي وتصديقها لنظرة الانبهار التي أرسلتها إليها عمدًا كانت دليلًا على عدم خبرتها في عالم الرجال والمثير للضحك اعتقادها أنها وضعتني تحت اختبار وقد رسبت به حسب تفكيرها الهش ولم تنتبه أنني جررتها إلى هذه القبلة عندما وضعتها في تحد مع جرأتها بصيغة سؤال:

عن أي جرأة تتحدثين؟

بعد القبلة راودتني فكرة استكشاف جسدها الخام وبدأت تتسلل إلي رغبة ترويض جسمها المبتدئ، الآن أريد كل شيء فيها، عقلها وقلبها وكبرياءها وجسدها وأنوثتها، الآن أريد كل ماهي عليه وقبل وقت قليل كنت رافضًا حتى شبه قبلة، محتارًا بين القبلة وعدمها، متسائلًا أي متعة هي الأجمل، متعة القبلة أم متعة الامتناع عنها!!!!!

كل هذه الرغبات والأسئلة المباغتة جعلتني أضمر نية للقاء القادم.

تكبر داخلي علقة الحنين حتى يكاد قلبي النابض بكِ يتوقف.

في غيابكِ كلني مبعثر ولا أحتاج غير صوتك ليرتبني ولا أتمنى غير عينيك لتلدنني من جديد...

منذ غبتِ وأنا لست بخير ولست أدري كيفي، كل ما أدريه أنك بعيدة جدًا كنجم على الضفة الأخرى للسماء، وقريبة جدًا كغصة في حلقي تأبى الزوال...

أشتاقك يا ليلي، أشتاقك يا سري الصغير، أشتاق صباحاتنا الخريفية،قهوتنا، مدفئتنا، نوافذنا، وأتلهف إلى جسدك المثقل بالسنين والتفاح.

لقد أغرقتني بالخطايا ولم يمنعني خروجي من الجنة من ارتكاب ذات الخطايا في كل لقاء.

سفر أسبوعين كانا كافيين لأتشظى شوقًا وأحترق لهفة. اتصلت بها مفاجئًا فهي لا تعلم بعودتي اليوم، وأجابت بلهفة:

- أنت هنا، لماذا لم تخبرني أن موعد عودتك اليوم، كنت استقبلتك بالمطار.
- لا أحب حقائب السفر ورائحة المطارات ولولا اضطراري للسفر ما غادرت.
- حسنًا، كيف حالك؟
- لست بخير.
- ما بك، هل أنت مريض؟
- مريض بكِ، وزيارة المريض واجب لو تذكرين...
- أنا آتية إليك. هل ثمت شيء أحضره لك معي؟
- تعالي فحسب.

وبعد وقت مضى طويلًا، استفقت من شرودي على طرقات أصابعها على بابي واستفاقت كل حواسي ومشاعري وغرائزي عندما شاهدت وجهها. شددتها إلى صدري ورحت ألتهم شفتيها بلا وعي والدبابيس المثبتة في شالها تلسع أصابعي

وعندما أدركت عدم قدرتي على التحكم بغرائزي، حاولت الإفلات مني وتملصت من بين يدي قائلة:

- قلت إنك مريض على ما أذكر!
- قلت إنني مريض بكِ.
- مع تمنياتي بعدم الشفاء العاجل إذن.
- ولماذا أتيتي إن كانت صحتي لا تعنيكِ؟
- هذا واجبي.
- يمكنكِ اعتباري مريضًا إلى الأبد إذن.

سألتها وأنا أقتطف قبلات سريعة من شفتيها؟ أتحبين البحر؟

- ومن لا يحبه؟
- ما رأيك لو نذهب إلى طرطوس اليوم؟
- ولماذا نذهب إلى هناك؟
- أريدكِ والبحر في جعبتي اليوم.

أومأت برأسها موافقة وتساؤلات كثيرة تتجول في عينيها.

أمامي البحر وليلى بقربي وصوت فيروز ينساب في أذني فماذا عساي أتمنى أكثر. توجهت إلى شاليه كنت قد اشتريته قبل

سنوات ألجا إليه بحثًا عن صفاء الذهن والهدوء ولم يحدث أن اصطحبت امرأة إليه.

بقي المكان طاهرًا تمامًا كما لازالت هي عذراء وهذا اكتشاف جنيته من قبلة يتيمة.

هناك، وبعد أن تخلصت من الأقمشة الزائدة على جسدها، جاءت إلي وكنت قد جلست على أريكة وضعت خصيصًا لتكون في مواجهة البحر وسألتني بعد أن أرخت نصف جسدها على ركبتي :

- أتريد قهوة؟
- أمام البحر، القهوة احتمال خاسر....
- وما هو الاحتمال الرابح؟
- كأس نبيذ، وأنت.
- ولكنني لا أشرب....
- ألم تملّ من استجداء طعمه من العنب العتيق على عروشه؟

سحبتها من يدها لتجلس على الأريكة وقلت لها:

ستشربين من أجلي اليوم.

وأحضرت كأسي نبيذ أحمر قدمت لها أحدهما، تأملته مليًا وبدأت ترتشفه مجاملة وعندما لاحظت إفراطي في الشرب، قالت:

- إياك أن تسكر....
- سأسكر من هنا...

قلت وقد أشرت بسبابتي إلى شفتيها، وبدا عليها بعض الارتباك.

وتابعت حديثي أليها :

- الم تتمني عاشقا على قدر جرأتكِ.

تمتمت وقد أيقنت أنني اكتشفت زيف جرأتها:

- بلى...
- أحضرت لك شيئًا هو على السرير.

تلفتت قليلًا قبل أن تكتشف موقع غرفة النوم وتتجه إليها. بدت جميلة بمشيتها المتكسرة، بارتباكها، بخجلها البكر، بجرأتها المزعومة وقوتها المصطنعة. وبعد دقائق خرجت من وراء ذلك الباب وخرجت معها شلالات من الفتنة.

كم كانت فاتنة وهي تقطن داخل اللون البنفسج، وكم كانت أنيقة الملامح، وكم كانت شهية وهي تدور حول نفسها متسائلة:

كيف عرفت أنني أحب هذا اللون؟

كنت قد رأيت هذا الثوب صدفة أثناء سيري في أحد شوارع حي الصالحية، شعرت أنه هي، وأن من وضع تصميمه وضعه خصيصًا لجسد كجسدها، عاري الكتفين، يظهر أعلى الصدر، وقصيرًا لا يكاد يلامس ركبتيها، وهي عندما ارتدته منحته بريقًا نموذجيًا، كان جسدها أقرب لتمثال إلهة هاربة من حرملك المنيتور، ممتلئة قريبة للرشاقة، ورغم أنها في الثامنة والعشرين من عمرها إلا أن نهديها ما كانا قد نضجا بعد كحبتي رمان تفتقتا عن جلنارهما حديثًا، وخصرها منساب كانسياب شلال أزرق في بحر من الفتن تليه، وشعرها أسود كليل مجدول لم يستطع الفجر فكه.

وقفت مبتسمة تنتظر انتهاء شرودي بها، قالت مع ضحكة ماكرة:

- وكأنك سكرت؟ أجبتها:
- خمرتي أنت بلقيستي أنتِ، وكل كوني أنت.

كانت على وشك ابتسامة عندما طوقت خصرها بين ذراعي ورحت أتناول شفتيها، انتفضت بين ذراعي كفراشة أيقظها اللهب وانفرط شعرها بين أصابعي غجريًا أسود، ومضيت على

جسدها أوقع التاريخ، الملم تاريخ خيباتي، أعيد ترتيب ذاتي، وغدا جسدي مرتع فيضان.

حاولت الفكاك مني والتملص من لمساتي وقبلي ولم تستطع، لأنني لم أكن ممسكا بها بيديّ فقط وإنما بقلبي وحرماني وشهوتي وغربتي ورغبتي وشبقي الذي ما من قوة الآن تستطيع الحد من اندفاعه.

بدأت أقبل كل ما هي، شفتيها، خديها، عينيها، جبينها، اذنيها وهي تتأوه ألمًا من شراسة لمساتي وازدد ت اشتعالا عندما نزلت إلى عنقها وإذ بالرائحة المخبأة في الركن الخلفي من العنق تثير جنوني.

التهمت كتفيها وهي لا زالت تحاول الفكاك مني عبثًا، رميتها بقوة على الأريكة، وقبل أن تتمكن من النهوض ارتميت بجسدي فوقها أنهل من نهديها وأمزق دون وعي الثوب الذي كان قبل قليل هديتي إليها، أردت أن أنطفئ ولكنني كنت أحترق مع كل مسامة من جسدها أقطعها نزولًا، اجتزت سرتها، وهناك في الأسفل بلغ احتراقي أوجه وكان علي أن أرضي غرائزي وشهوتي ورجولتي وقلبي، وهي ترجوني أن أتوقف وأنا لم أستطع، لم أقدر، ولم أكن أريد.

ومضى وقت لا أدري كم هو وأنا آكلها بكل ما أوتيت من مشاعر ورغبة ويهبني اهتزاز الأريكة شعور طائر يحلق فوق السماء الرابعة، وانقضى زمن الشهوة، وغرقت فيما يشبه النوم لدقائق، استفقت بعدها لأجدها في بقايا الثوب البنفسج، تنتحب بلا صوت.

في طريق العودة بقيت شاردة وحزينة كعصفور كسر جناحه في محاولة طيران أولى. وأنا شعر ت براحة غريبة، راحة من ضمن بقاء ما يحب له.

فليلى هالة من السحر تستعصي على الإدراك، هي بعض مني وبعض من ذاكرة تتلوى ألمًا على أمس لم تكن فيه. هي دهشة غارقة بين الإدراك واللاوعي وأنا لم أجد طريقة للم شمل انبهاري بها إلا امتلاكها لقد أمضيت كل تلك السنوات من عمري بعد طلاق هيلين متنقلًا من قلب امرأة إلى أخرى دون أن أقع تماما في الحب. اشتهيت أن تأتي إحداهن وتغرقني ولكن حتى في هذا لم يفلحن ولا زلت منذ خمسة وعشرين عامًا واقفًا هنا على الشاطئ في مأمن من الأمواج.

وجاءت ليلى بهيئة حب طالما انتظرته، مشاعر رقيقة انتابتني طيلة فترة علاقتي بها فكنت أشعر في كل لقاء كما لو أنه لقاؤنا

الأول وأتناولها كما لو أنها الوجبة الأخيرة قبل إعدامي. أخذتني حد الانبهار فهي نادرة، طاغية، حنونة، متفردة وأنثى بكل ما تحمله الكلمة بين ألفيها من معنى وبحضورها انتهت رتابة خمسة وعشرين عامًا قضيتها بين العمل والنزوات، أجني الأموال من تجارة غير مشروعة، أمارس رغباتي بطرق غير مشروعة، وكنت رجلًا ممتنًا للحياة غير المشروعة ولا يؤرق صفوي إلا شبح وكابوس ثقيل.

أما الكابوس فقد كنت أراني مع ثلاثة من أصدقائي عالقين في كهف،وفجأة يفتح باب من أحد الجدران ويعاود الانغلاق ببطء فيسرع أصدقائي ويخرجون واحدًا تلو الآخر وعندما أهم أنا بالخروج تكون الفسحة قد اصبحت ضيقة وتفشل محاولات أصدقائي في إخراجي وأبقى عالقًا هناك. الصعب ليس هذا الموقف بالتحديد بل المشاعر التي تتملكني بعد انغلاق الباب كليًا والانقطاع عن العالم، ما يخيفني ذلك الإدراك الرهيب بأنني باق داخل هذا الكهف إلى الأبد والمخيف أكثر هو يقيني بأن أحدًا لن يذكرني أو يحاول مساعدتي وتلك المشاعر تتملكني كما لو أنها حقيقية بل حقيقية أكثر من اللازم.

في عمر دقيقتين وكابوس أدرك معنى اليأس بالمفهوم المجرد، يأس لا يشبه يأسي عندما أفشل في العمل أو الزواج أو الامتحان، فكل فشل هنا قابل للإصلاح أما اليأس بالمفهوم الصرف فهو منعك من المحاولة، منعك من الحلم، منعك من مجرد التفكير بالتغيير، أنت هنا حبيس الجدران وحبيس مخاوفك ولن تخرج من هذا الويل أبدًا.

هذا هو اليأس الحقيقي، يأس غير قابل للأمل.

وأما الشبح فقد كان شبح رجل ظلمته سهوًا وأنا لا زلت أراه مجسدًا أمامي كحقيقة غير قابلة للشك. أحيانا أراه مصلوبًا على جدار في بيتي وأحيانًا أراه جالسًا على كرسي في زاوية لمقهى ما يرمقني بنظرات عاتبة وأحيانًا أراه متكئًا على أحد الجدران يراقب المارة بحسرة وعندما أقترب منه يختفي وأجدني في كل مرة متأخرًا عن الاعتذار له.

وانقضى ذلك الخريف بكل انفعالاته وعبثيته واشتعالاته، وأطفأ الشتاء نار الفوضى الخريفية، ووحدي كنت أزداد اشتعالًا وما من شتاء قادر على إطفاء عشقي. كنا في كل دقيقة نزداد فوضى، كنت متأكدًا أنها ملكي وكانت مدركة أنه ما من سبيل لها غيري، وكنا سعيدين بلقاءاتنا وبفوضانا وشتائنا،

وانقضى ذلك البلل ووصل الصيف مبكرًا عن موعده وأنا أمقت الصيف لحره وبعد ذلك بت أكرهه لقسوته ولأن مصطلح عطلة ينتمي إليه ولأن ليلى ستغادرني لقضاء العطلة الصيفية في قريتها الوادعة كما تصفها، وفي وقت سابق لسفرها عانقتها طويلًا، تمنيت لو أبكي، لو أن كبريائي يتنحى قليلًا ويدعني أبكي وأصرخ وألثم ثوبها وأرجوها أن لا تغادر، تمنيت لو يستفيق الطفل الذي يسكنني ليستجدي رحمتها وعطفها.

قلت لها بلهفة حاسمة:

- ابقي هنا... لا تذهبي ردت وقد نددت بلهجتي الآمرة:
- يونس، أشعر معك بأنني مكبلة، بت أفكر في كل أمر أقدم عليه إن كان سيرضيك، بت أخشى غضبك وسخطك. أنت دكتاتوري أكثر من الأنظمة العربية.
- هل ازعجكِ لهذا الحد.
- لم يحدث أن اكترثت برأي أحد غير أمي وهذا سبب لي مشاكل كثيرة ولكن في الحقيقة أرى ما أنا عليه معك تجربة جديدة لا تخلو من المتعة....
- أما أنا فقد اعتدت أن كل نسائي يطعنني وينفذن أوامري، وأنت يا حلوتي مثلهن.

قالت بعد أن لكمتني على صدري:

- يا لك من مغرور، عليك اللعنة، أنا أطيعك لأنني أريد ذلك وليس خوفًا منك أيها المتحذلق.
- فلتبقي إذن، لا تذهبي، تحججي بالدراسة أو العمل.
- لا أستطيع، علي مرافقة أمي.

إذن، أنا رجل في ضيافة الحرمان لثلاثة أشهر قادمة ولا متعة لي غير الوفاء الذي أخوض تجربتي الأولى معه فلم يحدث أن اكتفيت بامرأة واحدة، وهاأنذا أكتفي ببضع ذكريات جمعتنا ولكن وللأمانة فليلى تستحق الوفاء فهي قبيلة من النساء. كانت عشيقتي في السرير، وزوجتي وهي تحاول إعداد الطعام، وصديقتي عندما تسمر عينيها في عيني ترتشف كل ما أتفوه به، وأختي وهي تتمتم متذمرة من طلباتي الكثيرة،وأمي عندما تعتني بثيابي، وابنتي عندما تجلس في حضني تعاكس شعيرات صدري، وحبيبتي في كل الحالات.

كنت شغفًا بها بكل حالاتها، أراقبها وهي تضحك وتبكي وتصرخ وترقص وتغضب وتكفر وتصلي، وكنت مأخوذًا بتناقضها الغريب فهي تصوم وتفطر على كأس نبيذ، وتشهد ان

لا إله إلا الله وتتساءل هل ثمت إله يرضى بكل هذا الظلم الذي يعترش عالمنا، وكانت تمنحني رعشات كثيرة في السرير ثم تصلي.

لا زلت أذكر حديثنا عندما فرغت من صلاتها وجاءت وطبعت قبلة على شفتي، سألتها:

- لماذا تصلين؟

نظرت إلي طويلًا وقد فاجأها سؤالي ثم قالت مداعبة:

- أطمع في الجنة وأشتهيها، وإن كنت تريد أن تكون برفقتي فعليك أن تصلي.
- ألا يمكنني أن أذهب معك دون أن اصلي، خديني بشفاعتكِ.
- بالكاد أكفر عن ذنوبي وأنجو بنفسي.
- عن أي ذنوب تتحدثين وتريدين من الله أن يغفرها لك، أنت أقرب إلى الملائكة من كونك بشرًا.
- أنت.
- أنا !!!! وهل تعتبرينني ذنبًا؟
- أنا خائفة وقلقة وعلاقتنا غير شرعية.

ثم أجهشت بالبكاء وتزامن ذلك مع عناق قوي وطويل وقالت:

لا أعلم كيف بات إرضاؤك أهم من إرضاء الله.

وصمتت على صدري لدقيقة ولم أنبس بدوري بكلمة ثم قالت:

- أريد أن نتزوج.
- وأنا أيضًا أريد ذلك... ولكن...
- لكن ماذا، مضت شهور ونحن سويًا، إلى متى علي الانتظار لأخبر الجميع بأنك من أريد، لقد تعبت من العيون المتربصة ومن إشارات الاستفهام التي تحوم حولي مع رفضي لكل خاطب، أريد أن أكون معك بلا خوف وقلق، أريد أن أتزوجك وأن أحمل منك وأنجبك لعدة مرات. هل أطلب المستحيل؟ هل أطلب ما ليس حقي؟ لقد بدأت أشك بحبك لي.
- حمقاء، كيف تشكين بحبي لكِ.
- لم أعد أعلم شيئًا، أنا عاجزة ووحيدة و....
- كفى، ارجوكِ كفى...

تلك الليلة لم أستطع النوم وأنا أفكر، ليس بطلبها الزواج مني فهذا أمرمحتم ولكن باعتبارها لي ذنبًا، هي لم تلحظ انزعاجي مما قالت أو أنها لحظت وتجاهلته وراحت الأسئلة تدور داخلي كدوران العصافير حول الرأس بعد السقوط.

كيف أكون خطيئتها وهي صوابي الوحيد؟

كيف تطلب من الله أن يغفر لها ذنب عشقنا وأنا أدعوه كل ليلة أن يستمر؟

كيف تراني معصية وأنا أعتبرها توبتي النصوحة؟

كيف استطاعت أن تصف علاقتنا بغير الشرعية وكأنها عاهرة وكأنني أتسوق النساء؟

كيف يكون ثمت حرام في الحب؟

لقد مزقت بكارة قلبها قبل عذريتها، ألم يكن هتكي لقلبها حرامًا؟ لماذا الجسد إذن؟

آه يا حبيبتي كم آلمتني كلماتك ! كم أوجعتني!

لقد جلدتني بسوط مفرداتك المنتقاة بعناية لتسبب أكبر صدمة متاحة.

لقد أحزنتني حد الفجيعة. أنا حزين لأنني ذات أمس اعتقدت أنك تعتبرينني كما أعتبركِ، صوابًا لا منتهٍ.

أنا حزين لأنكِ تستغفرين الله من ذنب حبي وتتعوذين من سرير يجمعنا، أنا حزين لأن رائحة كلماتك تنتشر في أرجاء بيتي، تقتل الأوكسجين وتخنق رئتي. وهاأنذا أفتح النوافذ لأجدد هواء غرفتي وأنعش قلبي وقد كنت أحرص على عدم فتح النوافذ كي لا تهرب رائحتك من أرجاء بيتي لأحتفظ بها على السرير والوسادة والملاءات والجدران وأتزود بها في أيام البعد. كنت أحرص ألا أفتح النوافذ كي لا تهرب رائحتك مع النسيم إلى أنف غيري، لأنني أغار على رائحتك حتى من النسيم ومن كل ما يوجد على متن هذا الكوكب من حواس شمية.

والآن كل ما أريد.... لا رائحتكِ.

ولأن ليلى حريتي الوحيدة ولأن حبها توازني الأول، قررت أن أتقدم لخطبتها ودافعي الأكبر هو عدم رغبتي بأن أكون معصية لقيطة لا نسب لها. وانصرفت للعمل بجد ليكون كل شيء جاهزًا مع موعد انتهاء إجازتها الصيفية.علي الانتهاء من بعض الأمور العالقة، هناك مشكلة مع أحد العملاء قد تضطرني للسفر خارج سوريا، وهناك فارس الذي لم أستطع إلى اليوم معرفة أي خبر عنه وهناك نزار الذي لن أدع عشقه لوطنه

وحماسه المفرط وعاطفته المبالغ بها حد القرف أن تودي به إلى المقبرة أو إلى ما هو أسوأ من ذلك.

إلى اليوم لم اع معنى أن يموت الإنسان لأجل قضية...

أي أمر جلل هذا الذي يستحق الموت لأجله والتفريط بالحياة في سبيله؟ الوطن، الحب، الأبناء، الإله، الشرف، المرأة....كلها حجج لغوية خالية إلا من العاطفة، ونحن ولحرماننا العاطفي الناتج عن التربية المهترئة أصبحنا دمىً في أيدي من يتقنون التلاعب ببقايا العواطف، وأنا يومًا ما كنت دمية مثل البقية وكنت مستعدًا للموت من أجل أي شيء؛ من أجل ما يسمى اليوم وطنًا، من أجل أمي، من أجل أخوتي، كنت مستعدًا للموت حتى من أجل جارنا السابع فقد كنت مثقلًا بالحماس، ممتلئًا بالمبادئ، متحليًا بالإيثار وحلمي الأصغر كان كما كل أبناء جيلي تحرير فلسطين.

لقد علمونا منذ الصغر أن الوطن العربي تجمعه الوحدة والحرية والاشتراكية، وأدركت لكن ليس قبلما تأخر أن وحدته تلك هي وحدة المصالح ليس إلا، والحرية ما هي إلا حرية الأنظمة في القتل والسلب والإبادة دون رقيب، وأنه ما من شيء مشترك بيننا غير الخريطة والشعارات والوهم وزيف الرؤيا.

وها نحن اليوم مشردون، منفيون إلى الداخل، لا نملك دارًا أو غرفة أو حفنة تراب، وسوريانا أصبحت ألف بلد عربي وأجنبي وأصبح لكل حي فيها دين ولكل شارع مذهب ولكل بيت وجهة نظر معادية ولكل فرد رغبة بالانتقام دون أن يدري من من أو لماذا.

أذكر أن جول جمال كان مثلي الأعلى ولم أكن أشتهي مصيرًا إلا كمصيره. بطل ويالعنفوان هذه الكلمة، يا لعظمتها ويا لفداحتها

لذلك استغلها المتلاعبون في الدمى ليحولوا كل طفل ومراهق إلى بطل ينفق حياته في سبيل الوطن أو الله، لا فرق.

أما أنا اليوم فقد تجاوزت تلك المرحلة الحمقاء، مرحلة النزاهة، ولم أعد أريد أن أكون بطلا ويثور اشمئزازي من أولئك الأبطال جميعا.

حتى فارس الذي يلقبه أصدقاؤه بالبطل صرت أشعر بالغضب منه، لا يحق له أن يكون مندفعًا لهذا الحد وأن يكون غبيًا لهذا الحد لينتهي به المطاف قابعًا كجرذ في أحد أقبية السجن العام لأنه استهان بكلمة " لا" واستصغر معنى أن يكون هاتفًا في بلد الهتاف فيه ب لا يساوي ثمن رصاصة واحدة.

هل قلت رصاصة....؟

ليتني أستطيع أن أقتل الوقت برصاصة، أن أفرغ مشط مسدسي في رأس الزمن فيقضي وينقضي وتعود ليلى إليّ، فقد مضى شهران وهي بعيدة عني والوقت يمضي كسلحفاة في درب طويلة.

لم يكن الشوق وحده ما يؤرقني بل معرفتي بأن الوضع في منطقتها ليس جيدًا فقد تحول ذلك الموقع الجغرافي من الأرض بين ليلة وصباحها إلى بركان يغلي، مظاهرات مطالبة بإسقاط النظام،اضطرابات، انشقاقات، وتشكلت بالمزامنة مع ذلك نواة ما يسمى الجيش الحر وخلال فترة قصيرة انسحبت كل قوات النظام من المنطقة وتم إعلانها كمنطقة محررة تتعرض يوميًا للقصف وعشرات القتلى والجرحى مع كل قصف ولم يكن الوضع في بعض المدن الأخرى بأقل سوءًا. كنا في قلب معمعة كبيرة، ما من أحد يعلم ما يجري، مبعوثون أمميون باءت كل بعثاتهم بالفشل لأن الغرض منها لم يكن إلا لرفع العتب، وبدا الحديث عن سلاح كيماوي استخدم ضد المدنيين قتلى، جرحى، اعتقالات، قصف، طيران، أرامل، ثكالى، تشرد،مخيمات، جوع، بؤس، فقر، مرض، جهل.

وأنا أقف مذهولًا أمام ما يجري. لعبة أممية كبرى، تصفية حسابات،كيديات، وحلبة المصارعة أرض الياسمين والعالم بأسره يتفرج كما لو أنه يشاهد فيلمًا هاربًا من دور الرعب العالمية.

بدأ الأمر بالتنديد بعد كل مجزرة وبعد فترة وجيزة أمسى القتل أمرًا اعتياديًا حتى التنديد به لم يعد بمتناولنا نحن السوريين.

وامسى قسم كبير من هذا الشعب المسكين مشردًا تحت خيمة النزوح، وعدد كبير من الشبان حملوا السلاح مغررًا بهم وانساقوا وراء ايديولوجية دينية روجت لها بعض الشخصيات الوطنية الخائنة لزج أكبر عدد ممكن من المقاتلين في صفوف المعارضة المسلحة ومضى آلاف السوريين إلى الجنة ليضاجعوا الحور العين.

أي جنون هذا الذي يحدث في شامنا !

وأي جنون هذا الذي كاد يقتلني قلقًا على ليلى التي بات الاتصال بها مستحيلًا!

وألو واحدة كانت تكفي لتطمئنني وترحمني من قلقي ولكن ألو تلك لم تأتِ ووصلني عوضًا عنها رسالة تقول فيها:

(اشتقت مقهانا وقهوتنا واشتقتك، أنتظرك في نفس الموعد.) لقد عادت إذن، وعاد معها البريق والوهج والأمل.

عند غروب ذلك اليوم، طلبت قهوة بانتظارها وراحت عيناي تراقبان بلهفة الطريق الذي تأتي منه عادة، ولمرة أولى يفاجئني قدومها من طريق معاكس وإذ بها تربت على كتفي من الخلف وابتسامة شاحبة ترافق ملامحها الهادئة، ولأول مرة أكره هذا المقهى، أكره أن يكون مكاننا. لماذا لم يكن مكاننا في إحدى الزوايا قليلة الضوء، كنت عانقتها وقبلتها دون أن أخشى العيون المتلصصة على مشاعرنا.

ما جدوى أن يكون موقعنا على قارعة الطريق، على الرصيف الثابت اللامتبدل وفي وقت الغروب، وقت الدهشة العمياء!

جلست كما لو أنها لا تشبه نفسها، اكتفت بكلمة اشتقتك مصحوبة بابتسامة مصفرة، اقترحت عليها أن نذهب إلى بيتي فهذا المكان غير ملائم لمزاجها المكتئب، ووافقت.

خلف الباب ارتمت في حضني باكية، تنتحب كطفلة صغيرة أضاعت أمها وسط شارع مزدحم بالغرباء وبللت دموعها قميصي واستمرت على هذه الحال لدقائق. سحبتها بعد ذلك

لنجلس على أريكتنا، نزعت عن رأسها شالها وأصابعي تغوص في عتمة شعرها وارتمت هي في حضني من جديد كقط يتسول ملاذًا آمنًا. أعدت عليها السؤال:

- ما بكِ؟ قالت بصوت متكسر :
- ما رأيته كان فظيعًا، عشرات الأطفال الموتى وغيرهم تحت الأنقاض ومثلهم فوق الأنقاض ولكن أمهاتهم لا زلن تحتها أحياء وأموات. لقد خفت كثيرًا، لم أستطع معالجة أحدهم، تجمدت يدي في مواجهة الدماء وارتبكت أصابعي أمام الجروح، لمرة أولى في حياتي أدرك معنى أن أكون في معركة مع الموت وجهًا لوجه وخفت على أمي.

تحدثت مع عامر وطلبت منه أن يأتي إلينا وأن يبقى هناك، رجوته أن لا يكون في صف الجلاد ولكنه أبى، كنت مستعدة للتخلي عن كل شيء والبقاء معه لو أنه وافق على ذلك، لا أدري ما الذي يجول بخاطره، لقد لاحظ تهربي من رؤيته بعد عودتي، لم ألمه، لم أعاتبه، و لم أسأله ولكنه قال لي : لم يحن الوقت بعد..... عن أي وقت يتحدث؟ ماذا يقصد؟ ماذا ينتظر؟ لماذا يتصرف بازدواجية مقيتة؟ سألتها وقد تجاهلت كل تساؤلاتها حول عامر:

- هل كنت مستعدة للتخلي عني لو أنه وافق على البقاء هناك؟
- لمرة أولى أعرف معنى الوطن وكيف يكون التخلي عن رغباتنا ومشاعرنا في سبيله مكسبًا.
- ولكنه لم يبق، وها أنتِ هنا.
- صحيح..... لقد اشتقتك كثيرًا، خشيت أن أموت وأفقدك.

ضحك ت بصوت عال أثار بعضًا من انزعاجها وسألتني:

- ما الذي يضحكك الآن؟
- كلامك، كيف ستفقدينني إن أنت متِ، أنا الذي سيفقدك ويفتقدك فالأموات لا يشعرون.

أجابت وقد استعادت بعض مشاكستها المعهودة:

- وهل متَّ قبل الآن لتعرف أن الموتى لا يشعرون؟
- لقد كنت ميتًا في غيابكِ.
- هل كنت حزينًا؟
- الأموات لا يحزنون.
- بماذا شعرت إذن؟
- باللاشيء...

- وكيف أفهم اللاشيء هذا؟
- لا تعليل له.
- ربما هو الصمت أو الخواء أو الوهم أو العدم؟
- لا، هو أقل من كل هذا.
- وهل هناك ما هو أقل من العدم؟
- أجل، اللاشيء قالت بنبرة ساخرة:
- دومًا تهزمني لغتك.
- ليس مطلوبًا من طبيبة أن تكون عند حسن ظن اللغة.
- أريد أن أكون عند حسن ظنك.
- أنا رجل سيء الظن يا سيدتي.

تجاهلت كلماتي وذهبت لتعد قهوة، وبقيت جالسًا على الأريكة شاردًا باللاشيء، قطعت علي أفكاري عندما أحضرت لي كوب القهوة.

سألتها وأنا ألتقط الكوب:

- ألا زلتِ تريدين الزواج بي؟ جلست بقربي وقالت بحماس مفرط:
- هل أنت جاد؟

- بالطبع....

عانقتني عناقًا طويلًا ودافئًا، قلت لها:

- خذي لي موعدًا مع عامر...
- حسنًا، سأخبرك بتوقيت الموعد.

وفي مساء اليوم الموالي مضيت إلى بيتها حسب الموعد حاملًا معي قلبًا نابضًا بالحب وروحًا هائمة بين اللاوعي والإدراك الحلو، حملت معي رغبتي بالاحتفاظ بها وعدم فقدانها، وحملت معي الزهور وبعض الحلوى كما تقتضي التقاليد. فتحت والدتها الباب واستقبلتني بحفاوة ودعتني للدخول ومضى وقت قليل قبل أن يأتي عامر ويشاركنا جلستنا. لم أتخيل أن يكون بهذه الهيئة فهو أكثر وسامة من ان يكون رجلا عسكريا وأقل صرامة مما يجب، سرى بيننا حديث باهت قبل أن تدخل ليلى حاملة صينية القهوة ترفل بثوب أخضر بهي ألحقته بشال يأسر رائحة المانوليا المنبعثة من شعرها. كانت جلسة تعارف روتينية وأحاديثنا بسيطة ومرتبة وعبقة كمزهرية ورود اقتطفت من دار دمشقية في صباح صيفي مخضر.

وانقضى ذلك اللقاء اعتياديًا جدًا وعدت إلى منزلي محتارًا وقلقًا من الرجل الذي بات يرافقني بشكل شبه يومي وقد كنت أراه بمحض الصدفة سابقا.

لماذا هو الطرف الثالث بيني وبين ليلى دائمًا!

منذ التقيتها أول مرة في مقهى (مطر ايلول) وهو يجلس في توقيت كل موعد على الطاولة المواجهة لنا، كما أنه رافقني طيلة طريق عودتي من طرطوس وقد جلس في المقعد الخلفي يناظرني في مرآة السيارة وغضب عارم يسكنه ويكاد يفجر عينيه الحاقدتين، واليوم كان جالسًا بمحاذاة عامر ونظراته كانت ساخرة وغير مفهومة.

لماذا الآن، وفي هذا التوقيت بالذات وأثناء تواجدي مع ليلى، يأبى ذلك الرجل مغادرتي؟

وعرفت السبب عندما نقلت ليلى دعوة والدتها لي على العشاء بعد خطوبتنا بأسبوعين تقريبًا، ولبيت الدعوة كما في زيارتيَّ السابقتين محملًا بالحب والرغبات المتناقضة والزهور والحلوى، وبعد حديث عابر وثلاثة أكواب قهوة جمعتنا في غرفة الاستقبال دعتني والدتها لتناول العشاء في غرفة الطعام. ولم

يتجاوز الوقت دقيقتين حتى خرجت من ذلك البيت تائهًا، مستغربًا، وعلى وشك الانهيار.

ومضى يومان وأنا لا أجيب على اتصالات ليلى ورسائلها وتعمدت مغادرة بيتي حتى لا تباغتني هناك.

أي قدر هو هذا يا حبيبتي؟ وأية لعنة هي تلك؟

التقيتك المرة الأولى وأنا خارج وعيي وامتلكتك وأنا خارج إدراكي، وهاأنذا أختار الفراق وأنا خارج إرادتي. وأنت يا فراشتي لن تعرفي يومًا السبب.

ستغرقكِ الحيرة وتدوخك الأسئلة ويجتاح قلبك سوء الظن وستتحول روحك المرحة إلى روح تأبى الابتسامة ولن تعرفي لماذا، ستتصلين بي كل يوم عشرات المرات ولن أطفئ انتظارك ب الو.

ستأتين إلى بيتي وتكتشفين أنني غيرت قفل الباب وستدركين أننا لن نتشارك مفتاحه بعد اليوم وأنه لن يكون ثمة أريكة تجمعنا بعد الآن.

أشفق عليكِ، أشفق عليَّ.....ولا طريق لي غير الغياب.

ماذا عساي أقول لكِ، أنت التي تعانين يتمًا لا بداية له، أنت التي بكيتِ على صدري مرات كثيرة شاكية لؤم القدر الذي

سرق والدك قبل ولادتكِ وحرمك نعمة ومتعة مناداة أحدهم أبي.

اعذريني يا صغيرتي فلا قدرة أمتلكها لأخبرك الحقيقة.

أنا رجل أتعبه ضميره واتعبته متاهات النساء...

أنا رجل يتأرجح منذ ثلاثين عامًا بين شبح وكابوس...

بعد يومين التقيتها في مقهانا.

لم تسأل ولكن عينيها كانتا فضاء من الأسئلة وأدرك أن عدم سؤالها هو لخوفها من الإجابة.

لم أنظر إليها، تجاهلت نظراتها الحائرة وقلت لها:

- اكملي القصة وحدكِ.

ومضيت مسرعًا قبل أن يهزمني صوتها.

الفصل السابع

لا يملك الإنسان إلا حياة واحدة...

لا يسعه مقارنتها بحيوات سابقة ولا إصلاحها في حيوات لاحقة.

ميلان كونديرا

ماذا تريدين أن أجلب لكِ معي؟

- نبيذ أحمر؟
- وهل تعرفين ما هو مذاق الخمر؟
- لم أشربه، ولكنني أعرف مذاقه.
- كيف ذلك؟
- أحاول استجداء طعمه من العنب العتيق على عروشه.
- أفضل النبيذ الأحمر في ليالي الشتاء الباردة.
- وماذا عن ليالي الصيف الباردة؟

لم أجبها لأنني أعرف أنها تحاول تقمص الكلمات واستفزاز لغتي الكهينة كما يحلو لها أن تنعتها. قلت لها بعد دقيقتي صمت:

- أنت خمرة أهل السماء في نساء الأرض.
- وأنت نبيذ يدعوني إلى السكر مع كل رشفة...
- هل تعلمين يا ليلى، لقد عرفت نساء كالنبيذ أخذنني إلى عالم مؤثث باللهفة، وعرفت أخريات كالقهوة حملنني على أكف الصحو إلى عالم الجمال، وعرفت غيرهن كالماء لا تصلح الحياة بدونهن. أما أنتِ يا حلوتي لستِ مثلهن، أنت كلهن.

أرجعت رأسها إلى الوراء وأطلقت ضحكة صاخبة وقالت ولم تتخلص بعد من فوضى ضحكتها:

- لا يبدو المذاق شهيًا إن اجتمعت تلك العناصر مع بعضها.
- حسنًا، اعتبريني شاعرًا وتقبلي مني هذا الخلط، لأنه يحق للشعراء ما لا يحق لغيرهم.

أ تحب نزار قباني؟

- أحب بلقيس.... وأنت تشبهينها، ولأجل هذا فأنت بلقيستي.

غيرت مزاجها الضاحك وتمتمت:

- وهل نسيت مصير بلقيسة نزار؟

تهجم علي نبرة صوتها وعبثية كلماتها في ليالي الشتاء الباردة وليالي الصيف الباردة. الآن فقط أدركت قصدها من ذلك السؤال، كانت تعرف أن كل ليلة في غيابها ستغدو ليلة باردة على مر الفصول.

سألتني ذات حديث:

- من أنت؟
- يونس...
- ومن يونس؟

لاحظت أن الفضول يلف وشاحه الرمادي حول عنقها. سألتها:

- ماذا تريدين أن تعرفي؟
- كل شيء.
- وعن ماذا أخبركِ، أخشى عليك من الألم، أخشى عليك من الأدب ومن قلة الأدب.
- لا تخش علي وابدأ من البداية، من ذكرياتك البكر، تحدث عن كل ما يجول بخاطرك وإن استطعت تذكر ما كنت تفكر فيه وأنت في رحم أمك فحدثني عنه. أنا لا أعرف شيئًا عنك.

حسنًا، ولدت في شتاء 1958.

قالت فرحة كفرحة طفلة صغيرة بغزل البنات:

- لقد ولد ت في زمن الإنجاز العظيم، تزامنت ولادتك مع ولادة الجمهورية العربية المتحدة.

تضحكني انفعالاتها المبالغ بها تلك، كيف سأخبرها الآن هي التي تعتبر دمج الحكومتين السورية والمصرية إنجازًا عظيمًا – إن تلك الوحدة ككل انتصاراتنا ليست أكثر من خدعة.

لم أشأ أن أفسد عليها أوهامها، فقلت لها:

- أجل

- قل لي ماذا أخبروك عن تلك الحقبة لا بد أن والديك كانا شهودًا على تلك الفترة.

يبدو أن ليلى ككل النساء ثرثارة وتحب معرفة الحكايات المطوية على المجهول وتعاني من هوس التفاصيل. وعندي رغبة في مجاراتها لذلك قررت إجابتها على كل أسئلتها، مالم تنهكني الذاكرة، قلت لها:

- جمال عبد الناصر كان أمل الأمة ورمز صمودها.

كما قالت أمي نقلًا عن أبي، كانت تضحك ساخرة فتغرق سمرتها القاتمة بفعل الشمس في محيط من التجاعيد المرحة وتعقب قائلة:

حقيقة لم يتغير شيء، فالحقول لم تعطِ محصولًا أوفر من السنوات السابقة والأشجار لم تنم أكثر من المعتاد والدجاجات لم تفقس عددًا من الصيصان أكثر وبيوتنا بقيت من الطين، وجروح أكتافنا لم تبرأ من حمل جرار الماء وبقي طعامنا الوحيد الخبز والبرغل وحلوانا اليتيمة التمر ودبس العنب والتين اليابس، والكهرباء التي كنا نسمع عنها من المختار بقيت حلمًا بعيد التمني. والدك منذ سمع نبأ الاتحاد المصري السوري قال

لي بأن كل شيء سيتغير، ولكن شيئًا لم يتغير غير الرجال، هم لم يتغيروا فقط بل انهبلوا.

- سألت ليلى وكانت مصغية بتمعن:
- ولماذا انهبلوا حسب قولها يا يونس؟
- كانت تقول إن اهتمامهم الوحيد وقتئذ هو الخطاب الذي سيلقيه عبد الناصر على شعبه، وهم وبكل فخر أصبحوا جزءًا من ذلك الشعب الذي تشعله الخطابات دون أن يفهمها.

وكانت تقول أيضًا بأن الرجال تركوا أعمالهم وأراضيهم وأسندوا العمل للنساء اللواتي لعنَّ أبا عبد الناصر وأبا وحدته.

وتضحك ليلى مل ثغرها وتسأل :

- وماذا عن طفولتك؟
- على شفا حفرة من النهاية، هذا هو حال الطفولة في تلك الفترة الزمنية وفي ذلك الموقع الجغرافي البغيض.
- حسنًا، أخبرني أي شيء تذكره...
- لا شيء مهم. كنت ككل أولاد القرية أقضي الوقت باللعب والشجار، وأذكر أنني بدأت الصلاة في عمر السابعة

وحدث ذلك بعد أن بث لنا الأستاذ ذلك النبأ المشؤوم ومفاده أن كل من لا يصلي سيحرقه الله حتى يتفحم في النار وكرد فعل طبيعي لطفل لا يريد أن يتألم قررت أن أصلي. وفيما بعد أقنعتني أمي بطريقة حضارية بضرورة ارتياد المسجد لحفظ القرآن.

قالت ليلى وقد بدا عليها الفضول ولمعت عيناها كبومة:

- طريقة حضارية؟ جميل... وماهي تلك الطريقة:
- كنت جالسًا بقربها بانتظار استواء قطع البطاطا التي تقليها، وعندما لاحظت شرودي بالزيت المغلي والبطاطا التي تتحمر داخله، سألتني:

هل ترى يا يونس كيف تقلى البطاطا بالزيت؟ فأجبتها وقد بلعت ريقي بفعل الجوع : نعم.

فقالت لي بأن الله سيقليني في مثل هذا الزيت المغلي إن لم أذهب للمسجد لحفظ القرآن.

وأطلقت ليلى ضحكة صاخبة لم تقو على كتمانها إلا بعد دقائق، ورحت أراقب ضحكتها النقية من كل شائبة وعندما تخلصت منها، سألتني:

- وماذا بعد؟؟

- لا شيء، ما كنت لأغيب عن دروس المسجد أبدًا، حتى عندما أصابني الجدري حملت ألمي وجلدي المحمر وجروحًا متقيحة وحكة لاذعة وذهبت بكل هذا القرف إلى المسجد، وقد استشهد الشيخ بإصراري على حضور الدرس ومثابرتي أمام جميع الطلاب، وهو لم يكن يدري أن كل ما أريده هو أن لا أقلى في الزيت المغلي كقطع البطاطا.

- ووالدك... ماذا عنه؟

- كان يعمل في قطر مجاور لذلك فإن مروره خاطف بذاكرتي بحكم عدم تواجده إلا أيامًا قليلة كل عدة أشهر وفي أحد أيام 1975 وصلنا نبأ موته. لقد مات في مكان لا ينتمي إليه، في أرض لم تستطع ابتلاعه، فبصقته إلى الوطن. واستمرت السنين برتابة حتى حصلت على الثانوية وغادرت إلى دمشق لدراسة الحقوق.

- وماذا عن الحب في تلك الفترة؟

قالتها وبضع من الغيرة تلتحف نبرتها. سألتها:

- هل تغارين؟

- ولم لا؟

ضممتها إلى صدري وقلت لها:

- لم تكوني موجودة حينها، لو عرفتكِ منذ البدء لاستغنيت بك عن كل نساء الأرض.

ابتسمت بوداعة وتابعت أسئلتها:

- إذن حدثني عن حبك الأول!
- ليس ثمت حب أول يا ليلى، ثمت وهم أول، خدعة أولى، مكيدة أولى، وما نطلق عليه مسمى الحب الأول هو مزيج من اضطراب المشاعر والفضول.

الحب الأجمل هو الذي يأتي في عمر كعمري هذا وقد تجاوزت الدهشة والانبهار وغطست عميقًا في محيط التجارب.

الآن فقط أنا قادر على قول أحبكِ وأنا مفعم بالحقيقة غير القابلة للجدل....

أحبكِ يا ليلى....

لاحت على ملامحها ابتسامة محارب هزم كل مبارزيه، وأردفت:

- لا بأس، ولكن من باب الفضول أخبرني عن حبك الأول المزيف!

لا مفر من أسئلتها، قلت في نفسي.

- كان اسمها مروة أخت لأحد أصدقائي، تصغرني بعامين وتكبرني بعدة سنوات نضجًا، جسد مدور، جدائل شقراء، وشامة كبيرة على خدها الأيسر وحب. كنا نتبادل الرسائل ونتبادل لقاءات عاجلة وخاطفة وبعض الغمزات.
- وماذا عن تبادل القبل؟
- لم يحدث ذلك يومًا لأن محمود كان يقف بيننا.
- ومن محمود هذا؟
- شيخ الجامع.

نظرت إلي مستفهمة فقلت لها:

- لقد كبرت يا ليلى وأنا خائف من كل شيء، من الله ومن أمي وجيراني وأقاربي وأصدقائي حتى الكتب غير القرآن كانت 136تسبب لي هلعًا. كنت أتعامل مع كل فعل أقوم به كما لو انه خطيئة وقضيت جل وقتي في الجامع أطج وأركع طالبًا الغفران، متوسلًا الله ألا يحرقني ويشويني.
- ولكنك الآن مختلف، كيف تغيرت قناعاتك؟
- كانت البداية عندما جئت إلى دمشق، فاجأتني هذه المدينة بطغيانها وجمالها كما تفاجأت بمكتباتها الضخمة التي أهدتني كتبًا عبقرية توضح فكرة الله وكيفية التعاطي مع

الذات الإلهية ورحت أبحر في الكتب والأبحاث مفتشًا عن أجوبة للأسئلة التي كانت تلاحقني كجني طيار، ولم يمضِ وقت طويل إلا وكنت قد تصالحت مع الله وأصبحنا صديقين.

- صديقين؟؟؟
- أجل، وعقدنا أتفاقًا أيضًا.
- اتفاق!!!! وما مفاده؟
- قال لي الله إنه ليس ساديا ولم يخلقني ليعذبني، كما أنه لم يضع خطة مسبقة لحياتي وأخبرني أن القدر حجة الضعفاء وأنه ليس أكثر من ثوابت طبيعية نحن البشر من يقرر هيئتها نتيجة لخياراتنا، ووعدني أنه لن يعذبني إن التزمت بضمير حي يجنبني أذية الآخرين ويقربني من الصواب، وأنا وافقت على شرطه.
- وأين كان مقر الاجتماع وتوقيته؟
- كان ذلك في عامي الجامعي الثاني في توقيت العطلة الصيفية والمكان قريتي الكئيبة، استلقيت على فراشي في صحن الدار وشردت في الكون وسرقتني الفكرة.

ماذا يوجد خلف السماء،؟ هل هن سبع سموات طباقًا كما يقولون، وامتد بي الخيال، أغمضت عيني، تحررت من الجاذبية وصرت أخف من ريشة تداعبها نسائم الصيف المعتلة، حملني النسيم إلى حدود الغيم وهناك علقت بإحدى الغيمات التي طارت بي إلى أعلى فأعلى فأعلى وجدتني أمام جدار لا بداية له ولا نهاية، يتوضع عليه باب كبير،فقررت أن أفتحه لأستكشف ما وراءه، وما إن أدرت المقبض حتى غزت عيني أنوار مبهرة، ووجدتني على حين شهقة في عالم قوامه النور والظلال وخضرة لا تنتهي إلا عند أمواج زرقاء ترتطم بخفة ببعض الصخور المترامية.

لم تك تلك الخضرة غابة، ولم تك الزرقة بحرًا واللون البني الفاتح الذي يفصل بينهما لم يكن شاطئًا، كان ذلك المشهد مألوفًا ولكنه لا يشبه شيئًا، والغرابة كانت في حالة عدم توازني الشهي.

لمرة أولى شعرت بحريتي، ولأول مرة أشعر أنني لا أملك جسدي وروحي، فجسدي كان ملك النسيم، وروحي كانت ملك الله الذي أشار إلي بأن أشاركه جلسته على حافة المشهد، وهناك عقدنا اتفاقنا ومذاك اليوم والله يسكنني.

- ولم تخبرني ماذا حل بمروة بعد أن سافرت إلى دمشق؟
- غرقت في الوحل بعد أن فضحت إحدى صديقاتها سرنا وباتت رسائلنا في متناول كل عين تجيد القراءة، ولم يمضِ شهر إلا وكانت قد تزوجت، ولم أرها بعد ذلك إلا صدفة قبل أشهر قليلة، تجاوزت الخمسين عامًا، وككل نساء القرية في مثل سنها، تضاريسها تقتصر على التجاعيد وخصل بيضاء متناثرة تحت الشال، ترهل وشقوق وأرطال زائدة.

تمنيت حقا لو أن الصدفة لم تجمعنا ولم أرها، فقط لأحتفظ بصورتها النضرة في مخيلتي جميلة ونقية.

- حدثني عن سفرك.
- لقد جرى كل شيء كما خططت تمامًا. حزمت حقيبتي الصغيرة هاربًا من قريتي الكئيبة التي حتى شروق الشمس فيها يذكرني بمنكر ونكير، هاربًا من الحقول والبيادر والطرق والجدران والأسقف، ومن أهلي وأقاربي وأصدقائي وأشباح الشيوخ واشباه الرجال وبقايا النساء. هاربًا من كل تلك الكآبة العمياء، وكنت سعيدًا جدًا لأنني

تمكنت من الفكاك من حب غبي بامتياز، وأنقذت ذاتي الحائرة في لحظة اليقين الأخيرة.

- وماذا حدث بعد سفرك؟
- ما بالك – يا حلوتي؟ هل أتيتِ إلى هنا لتنبشي ذاكرتي؟ قلت لها وقد طَوقت خصرها بذراعي.
- اممم، عندما وصل الأمر لعند النساء، توقفت، لا تريد أن تحدثني عن مغامراتك.
- سأخبركِ بما تريدين ولكن ليس الآن، لقد اشتقت إليكِ وانتظر منذ أتيتِ أن تفرغي من أسئلتك لأتفرغ لكِ ولكن على ما يبدو أسئلتك كثيرة وأنا لم أعد أطيق الانتظار. لقد دوختني ضحكتك الصاخبة، وأفقدتني توازني إيماءاتك اللذيذة ولا أرغب الآن بغير جسدك.

في الحقيقة ليست الرغبة وحدها ما منعني من إكمال ما حدث بعد ذلك ولكن لأن حكايتي وصلت إلى بدايتها والبداية كالولادة صعبة ومؤلمة.

وهاأنذا أستذكر بدايتي على مهل دون ليلى التي لم أروِ لها إلا ما قبل الهامش.

سارت الأمور بتلقائية إيجابية، حصلت مع ثلاثة شبان على غرفة في السكن الجامعي وبدأت العمل كموزع جرائد، انصرفت إلى الدراسة بهمة عالية وسعادتي كانت كبيرة رغم التعب والإرهاق والفقر الذي أعانيه. جمعتني صداقة قوية مع الكثير من الشبان ولا صديقات.

كنت أمتلك يوم فراغ واحدًا كل أسبوع، أمضيه غالبًا في استكشاف "الشام ". لا يمكن لهذا المكان أن يكون مدينة أو عاصمة أو أرضا، لا يليق بهكذا جمال إلا أن يكون قطعة من الجنة تحت مسمى فردوس.

صباح دمشق ليس كالصباح في أي مكان آخر.

للصباح هنا رائحة خاصة، عبق متفرد، ستكتشف فيما بعد أن أي عبق غيره مدعاة للسخرية. كنت أستيقظ صباحًا على صوت زقزقة الدوري ممتزجًا بنغم أجراس الكنائس القريبة مضافاً إليهم صوت فيروز المنبعث من المذياع وتتخلله أصوات الطلاب يلقون التحية على بعضهم، وقبل أن أفتح عيني تدغدغ أنفي رائحة البن والهال.

هنا فقط اكتشفت معنى أن يكون للرائحة هوية وتاريخ ميلاد وعلامات مميزة. ففي الغوطة يمتزج عبق التراب مع عبق

أزهار الخوخ والدراق والنارنج واللوز والعقابية والكرز والمشمش. هذا الدمج وحده يجعلني أشبه ب غرنوي بطل رواية العطر فأمضي بغريزة مجرم أفتش عن طريقة أستطيع من خلالها حبس هذه الرائحة في قارورة.

وعندما أشتهي رائحة حد الانبهار أذهب إلى دمشق القديمة، وهناك تتحرش بي رائحة الياسمين المنصهرة في الحجر المرصوف والجدران المتهالكة التي تأبى الاستسلام. ويصل الانبهار أوجه حين أصل إلى البزورية فترحب بي رائحة البن المنعتق عما يشبه خرافة ومع كل خطوة داخل السوق تلسعني الرائحة أكثر فهنا رائحة الزنجبيل وهناك القرفة وتشكل الروائح خيطًا دخانيًا يشدني خلفه بلا وعي وتتتابع الروائح : البابونج، الميرمية، الخزامى، النعنع، السمسم، الحبة السوداء، ومن ثم رائحة البندق المحمص واللوز والصنوبر المنبعثة من المحمصة وآخذ قسطًا من رائحة الحلويات والكعك والقضامة والملبس. أذكر أن هذا المزيج الفاتن من الروائح كان يطاردني إلى غرفتي في السكن الجامعي ولا يغادرني إلا في صباح اليوم الموالي عندما تغتاله رائحة القهوة الصباحية.

في الشام فقط اكتشفت أن علماء الكيمياء حول العالم مخطئون وأن ما ذكر في كتاب العلوم عن أنه ليس للماء لون ورائحة وطعم ليس أكثر من هراء، فلن يتمكن أي علم في الكون من إقناعي أن نهر بردى لا يملك رائحة، شعرت بها تسري في عروقي كرائحة العشق والأمل كما أنه لن يتمكن عالم مهما بلغت نباغته من إقناعي أنه ليس لماء نبع الفيجة طعم أنا قادر على تمييزه من بين ألف طعم ماء آخر، طعم سأبقى ظمأً إن ابتعدت عنه ولو شربت المياه الجوفية في العالم أجمع.

ومضت قرابة الثلاث سنوات من التعب الممتع والروتين اللذيذ، وتوقفت أموري عن السير في السنة الرابعة، كان ذلك لمجرد إبداء رأي لم يتوافق مع رأي القطيع.

استدعاني عميد الكلية لمكتبه، ذهبت إليه بخطى مترددة، خائفة،منهكة ومتثائبة. دقائق قليلة داخل مكتبه وخرجت محملًا بشعور وحيد، شعور ثقيل، شعور عارم بالغضب.

لم أكن أعلم أنني قادر على الغضب لهذا الحد ولفرط غضبي الداخلي ساد على ملامحي سكون خارجي رهيب، لم أستطع التكلم إلى أصدقائي المترقبين في الممر، كانت الدموع تخنق عيني، تطوف بين جفني دون أن تنهار، وكان ثمة كرة ملح تسد

حنجرتي تحول بيني وبين مخارج الحروف فتكسرت الكلمات على شفاه النطق.

رأيت البشر حولي أشباحًا وغابت عني أصواتهم، الشفاه تتحرك ولا أسمع شيئًا، أعينهم تتساءل وايديهم تتراقص في الهواء وأنا كنت على شفا خطوة من الإغماء.

خرجت من ذلك الحشد راكضًا، لم أجد أمامي إلا مقهى قريب لأدخله فالإغماء على طاولة في مقهى أفضل من الإغماء على طريق.

جلست قبالة الجدار، وأمام الجدار انهارت دموعي وانهارت ركبتي وانهارت أحلامي وانهار شاب داخلي.

شعرت بمرارة تسري بشراييني فدمي كان مرًا وكذلك ريقي ولساني وحلقي تمامًا كمرارة الخيبة التي قدمها لي عميد الكلية على طبق أسف مزيف. غرقت في حالة بكاء صامت، كل ما بي يصرخ بصمت، ويبكي بصمت، ينتحب بصمت، وينعي شابًا قتل قبل ساعة بصمت.

هل علم ذلك الذي قرر فصلي أنه سيدمر حياة شاب كل ما أراده أن يعيش وينطلق إلى الحياة؟

يا لحماقتي ! بالطبع يدري، فهو لم يقرر فصلي إلا لأنه يريد قتلي وجعلي عبرة للآخرين كي لا يضعوا ألسنتهم قيد التفعيل.

يريد دفن أحلامي وقطع لساني ووأد كلماتي قبل أن تصبح في عمر لا ينفع معه الوأد.

هم لا يريدوننا أن نتكلم، أن نشتكي، أن نحتج وأن نصرخ ونتأوه ونتوجع. هم يريدوننا صورًا جميلة، مبتسمة دومًا، ممتنة دومًا، وغائبة عن الجوارح دومًا.

صدفة.....

كلمة قصيرة لغويًا ولكنها تجمع بين صادها المزمومة بخجل وتائهاالمربوطة بغرور كل ما في هذا العالم من غرائب....

كلمة قد تكفي حروفها الأربعة ونقاطها الثلاث لتغير مجرى حياة كامله صدفة أولى : يصدمني أحدهم بسيارته.

صدفة ثانية: أحدهم هذا ابن أحد المسؤولين المرموقين في البلد.

صدفة ثالثة: اجتمعت أفكارنا وتكاملت آراؤنا وأصبحنا صديقين مقربين وبعد عامين فقط تغيرت حياتي برمتها فتحولت من شبه مشرد يجوب الشوارع لبيع الجرائد إلى ضابط في الأمن السياسي برتبة ملازم.

عامان فقط وثلاث صدف كانت كافية لأتحول من طالب حقوق إلى سالب حقوق، ولتتحول الكثير من قناعاتي عن مسارها.

منذ أن وضعت النجمة على كتفي تحولت إلى يونس جديد، تحولت إلى رجل كل همه جمع الثروة والارتقاء في مركزه يساعدني في ذلك نزار الذي أصبح بمحض الصدفة الصديق المقرب لي وأصبحت بيت قلقه. ونزار طبيب مشهور ببراعته في دمشق يكبرني بعشر سنوات، شاب خلوق، وسيم، لطيف، وذكي ومما أثار انتباهي أن والد نزار مسؤول رفيع المستوى في الحكومة ولعل الأكثر واقعية أن يكون نزار الآن منخرطًا في أعمال أبيه وصفقاته المشبوهة، سألته ذات مرة:

- لماذا لا تنتهج نهج والدك؟

أجابني ومسحة حزن تعتلي ملامحه الأنيقة، وضحكة شاحبة حاول جاهدًا استنباتها على محياه:

- لا أعلم كيف ينام أبي؟ كيف لا يؤرقه ضميره؟

وكيف يستطيع أن يلاعب أطفالي كما لو أن له نفس براءتهم؟ أنا صاحب ضمير يقظ يا يونس وأن أكون مثل والدي

معناه أن أكون ظالما، وأن أكون ظالمًا معناه أن أبقى على قيد النعاس طيلة حياتي. وأنت تعلم كم أنني أحب النوم.

ضحكت على مزحته مجاملة ولم أشأ الخوض أكثر بالحديث حتى لا أجدني أدافع عن نفسي بطريقة غير مباشرة أمامه، أنا الذي على ما يبدو بدأت أنتهج نهج والده الذي يقول لي كلما رآني إنني أذكره بشبابه.

وأنا لا أعرف عن شبابه شيئًا وهو يعرف عني كل شيء ويساعدني ويحميني بلا مقابل وبلا نصائح.

قلت له ذات مرة وكان على علم بتجارة المواد المخدرة والأسلحة المهربة التي نشطت بها :

- هل أفعل الصواب، انصحني...

ابتسم باتزان وقال:

- النصيحة خدعة، وهي غير مجدية ما دمت مقتنعا بما تفعل. علمتني الحياة أن لا أقدم النصائح وأن لا أسمعها...

اذهب يا يونس وعش حياتك كما ترغب، كن قويًا ومثابرًا وطموحًا ولا ترض بأقل من القمة فالقمة تناسبك إن أنت صدقت ذلك.

وفعلت كما أوصاني وصدقت أن القمة تناسبني، وسارت أموري خلال السنوات القليلة التالية على خير ما أريد، ترفعت رتبة وأصبح اسمي النقيب يونس، زادت ثروتي، وزاد شغفي بالنساء وأصبحت زير نساء كما يصفني نزار وزوجته سمر التي نشأت بيننا صداقة متينة أيضًا وبحكم هذه الصداقة عرفتني على صديقتها هيلين التي أخذت علاقتي بها على محمل الزواج. أردت هيلين زوجة لي يدفعني الملل إلى ذلك القرار، فبعد خمس سنوات من العبث وفتيات الأرصفة والحانات وبعد الكثير من علاقات الحب الفارغة من الحب قررت أن أنهي مللي العاطفي بزوجة وطفل، أردت زوجة تنهي حالة الركود وتعيد لحياتي منطقها الطبيعي فقد سئمت الثبات واللامنطق والنساء المعلبات حسب المواصفات القياسية للفحولة.

شهر واحد كان كافيًا لتغرق هيلين في العشق وأغرق أنا في ادعائه وأمام دهشة نزار وسمر أعلنت نية زواجنا، وتم الزواج بسرعة كبيرة حسب التقاليد والعادات وأمضينا شهرين جميلين كزوجين هائمين.

بعدها تحولت هيلين إلى عبء كبير ومسؤولية جديدة وبوم يراقبني كيفما تحركت لرصد أفعالي. ولم تكن هيلين همي الوحيد

في ذلك الوقت فقد كان صيف 1983 يحضر لي مصيبة تليق بحرارته المرتفعة، وكانت تلك المصيبة مؤلفة من كلمتين (نفذ الأوامر) و (نفذ الأوامر) تلك جاءت ردًا على اعتراضي:

- ألا يوجد في حماة من الضباط ما يكفي للسيطرة على الوضع؟ كما أنه ليس من مهام فرعنا التدخل بالشؤون العسكرية.
- وجاء الرد : نفذ الأوامر.

بعد يومين كنت هناك، لم يكن بتصوري أن الوضع سيء لهذا الحد، كانت المدينة برمتها محاصرة بالدبابات والعساكر يقتلون أحدهم لمجرد الشك أنه ربما ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين ويفرغون رصاصهم في أجساد المدنيين لمجرد الارتياب من ملامحهم، وعلمت فيما بعد أن الوضع في حلب لم يكن بأقل سوءًا.

وأمام مساءلة ضميري الذي كان على وشك لفظ نفسه الأخير، اتخذت قرارًا يرضيه ويرضي أنانيتي وقررت أن أنفذ الأوامر وأقنعت نفسي بفكرة أنه إن لم أكن أنا من سينفذها فثمة المئات غيري، فلماذا أضحي بعملي ومستقبلي وربما بحياتي إن كانت هذه التضحية لن تحدث فرقاً؟

لم أقتل أحدًا، ولم أصدر أمرًا بقتل أحد ساعدني بذلك أن عملي كان مكتبيًا ومهمتي كانت التحقيق مع بعض الأشخاص المشتبه بهن وبهم.

وبعد شهر واحد فقط كنت قد بلغت من التعب والإرهاق عتيًا ووصل غضبي إلى ذروته وشعرت للحظة بأن يونس القروي البسيط الحالم بدأ يطفو على الوجه رويدًا رويدًا يطالبني بإحقاق العدل.

العدل.....؟

يا لها من كلمة حمقاء، بلهاء، أشبه بنكتة فاشلة.

أي عدل قد يكون في السجون؟

هنا في هذه الأقبية ثمة دومًا طرفان، ظالم ومظلوم، جلاد وضحية،أبيض وأسود، والعدل لون رمادي لا مكان لحياديته.

ووجدتني مع سبق اللانية جلادًا وظالمًا ووحشًا صغيرًا.

وفي أحد المساءات أحضروا لي شابًا لأحقق معه ولأن ذلك الشاب كان عنيدًا ولأنه لم يتجاوب مع أسئلتي ونعتنا بالغبار الذي يختنق الناس به، اتجهت إليه، حدقت في عينيه اللتين يبدو عليهما الإعياء والنعاس وصفعته بقوة كل قهري المكبوت، فسقط جسده النحيل على الأرض بعد أن ارتطم رأسه بحافة

الطاولة ولأنه كان مقيدًا لم يستطع النهوض، وضعت قدمي على صدره وقلت له:

- إياك أن تتمادى، لحسن حظك أنني من يحقق معك وإلا كنت الآن في عداد الأموات.

ثم أبعدت قدمي عنه وأدرت ظهري له، ربما كي لا يرى في عيني إعجاب يونس القروي به، وعندما استدرت كان قد تمكن من النهوض وتقدم خطوتين وأصبح قريبًا جدًا مني، فهمَّ العناصر لإيقافه وأومأت لهم ألا يفعلوا، أنفاسه باتت متاخمة لأنفاسي وعيناه تحدقان في عيني وهمس قائلًا:

- أنت لا تستطيع أن تقتلني لأنني أشبهك.

وأضاف مستغربًا:

ماذا يفعل من مثلك هنا؟

- اخرس.

بقيت في المكتب وحيدًا بعد أن أمرت بإعادته إلى الزنزانة.

لماذا لم أستطع أن أكون حازمًا معه؟

لماذا تجمدت فجأة وتجمد الصراخ في حنجرتي؟

كيف قهرتني عيناه، ما الذي فضحني أمامه،كيف اكتشف قلقي وحيرتي؟

وراح سؤاله ذاك يستفزني (ماذا يفعل من مثلك هنا؟)

ورغم محاولاتي الهرب من هذه الكلمات إلا أن نبرة صوته كانت تقرص أذني بعنف ويتجدد السؤال كل ثانية واحتل كل مسامات تفكيري وأعادني إلى سنوات مضت، إلى ذلك اليوم الذي قررت فيه دراسة الحقوق، وأتساءل الآن :

أين أنا مما كنت أحلم به يومًا؟

كان حلمي أن أصبح طالب حقوق فأمسيت سالب حقوق.

أجلس في مكتب تلوثه الدماء بدل شذى دمشق، وتعلق الأسلحة على جدرانه بدل المكتبة، وخوف وقلق داخلي عوضًا عن السكينة.

ها أنا أجلس في مكتب كئيب وسؤال أحدهم يتجول في أرجائي ماذا يفعل من مثلك هنا؟

استفزني السؤال ورحت بلا وعي أفتش عن جواب.

لست ظالمًا لأهين شبابًا أنا كنت ذات حماس بمثل شجاعتهم ولست منافقًا لأرتدي كل هذه الأقنعة بحجة الذكاء.

ضحكات كثيفة تقهقه داخلي...

لست ظالمًا... وأضحك لست منافقًا... وأضحك شجاع... وأضحك

هجمت علي الأسئلة والأجوبة والضحكات الساخرة، وددت لو أمتلك القدرة على صد هجماتها. بدأت تدور حولي ويعلو صوتها رويدًا رويدًا أحملق في السقف فأرى إشارات الاستفهام مبتسمة لي، أنظر للكرسي وراء المكتب فإذا بها تشغله بوقاحة، تقف على النافذة، تجلس على الكراسي، تمدد أرجلها على الطاولة في منتصف الغرفة، تستلقي على الأرض وتلتصق بالجدار.

شعرت فجأة أن هذه الغرفة تخنقني ولا مكان لي فيها، فخرجت مسرعًا ونزلت إلى الشارع الفارغ إلا من أعمدة الإنارة غير المنارة وحاويات القمامة ولكن الأسئلة وإشارات الاستفهام والضحكات الساخرة لحقت بي وبدأ صوتها يعلو حتى استحال صراخًا عظيمًا وكاد صدى الكلمات يفجر طبلتيّ أذنيّ، وبحركة عفوية وضعت يدي على أذني وحاولت سدهما بكل قوتي، ولم أفلح. وكلما حاولت الهرب ازداد الصراخ وازداد الصدى وأوشك رأسي على الانفجار.... صداعًا.

والصدى يزداد أزيزًا وكأن السماء الأولى التي زرتها ذات حلم قد أدارت المقبض وفتحت بابها لترميني بحجارة من أسئلة:

من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟ ماذا تفعل هنا؟؟

وعندما أيقنت عجزي، عدت إلى المكتب، تناولت بعض أقراص الدواء على عجل دون أن أدرك تمامًا ما هي واستلقيت على الأريكة ولم أعد أذكر شيئًا عدا الضوء الأصفر المعلق في السقف وهو يدور.... ويدور..... ويدور.

- سيد يونس ! سيدي! أرجوك أن ترد علي، هل أنت بخير؟ هل أحضر لك شيئًا؟

استيقظت على هذه الكلمات، فتحت عيني وإذا بحارسي ينظر إلي وعلامات الحيرة بادية على وجهه.

- أحضر لي قهوة.

قلتها وأنا أحاول الجلوس

- حاضر سيدي، وانصرف.

نظرت إلى الساعة على الجدار فإذا بها تشير إلى الرابعة وأدركت عندما نظرت إلى النافذة أنها الرابعة عصرًا، كما أدركت

عندما لمحت علبة الأدوية المرمية على الطاولة أنني تناولت حبوبًا منومة.

شعرت أثناء تناولي للقهوة بعدم انتماء حواسي ومشاعري لأي جزء مني، كنت كمن خرج توًا من عمل جراحي ولا زال تأثير المخدر ساريًا على حواسه.

أمسكت سماعة الهاتف وضغطت على الازرار التي تفصلني عن صوت نزار.

- ألو...
- نزار، هذا أنا.
- يونس ! أين أنت يا رجل؟
- أريد إجازة، مرت أسابيع وأنا هنا، أطلب من والدك أن يتوسط لي فهم يرفضون منح الإجازات.
- ما بك، لماذا يرتجف صوتك، ما الذي يقلقك؟ أخبرني.
- فيما بعد، ساعدني بشأن الإجازة، أرجوك.
- لا تقلق سيكون كل شيء على ما يرام
- إلى اللقاء.

ما كنت أريده هو الابتعاد عن هذا المكان اللعين، عن الجدران المسكونة بالموت. تنبهت أنني نسيت هيلين وأنها كانت قبل شهر تقريبًا على مشارف الولادة، ربما ولدت الآن.

شعرت أنني أريد الذهاب إلى القرية، ليس فقط لرغبتي برؤية أمي وهيلين وربما ابني أو ابنتي، وإنما لحاجتي لأكون وسط أناس يتميزون بالجهل، لا يدركون ما يجري حولهم، لا يسألون عما يحدث ولا يهمهم إلا الأرض والبذار والقطاف والحصاد ولا يعنيهم غيرالرغيف، ولا يتلهفون إلا لموسم المطر، هم أناس لا يحلمون ولايسألون ولا يتمنون. يا إلهي كم أحسدهم أولئك البسطاء المؤمنون!!

***

حملت الطفل بين يدي، تمنيت لو أشعر بشيء، لو أن عينيه المغمضتين أو يديه الصغيرتين جدًا تثيران بعض فضولي أو أن شفتيه المرتعشتين تحركان داخلي تلك الغريزة المدعوة ابوة ولكن شيئًا من هذا لم يحدث ولم أعرف السبب، ربما هي الفوضى الداخلية التي تعتريني أخذت أحاسيسي وحتى غرائزي إلى منطقة حيادية أو ربما لأن هيلين لم تعد تعني لي شيئًا فإن طفلها لم يعنني بطبيعة الحال.

مسكينة هيلين، أنا الآن كل حياتها وهي لم تعد موجودة في حياتي.

أنا الآن بمثابة قوس قزح حياتها كما تقول وهي مع طفلها ليست بالنسبة لي أكثر من لون رمادي بهيئة عبء.

تخلت عن دنياها من أجلي وأنا لست قادرًا على التخلي عن بعض أحزاني من أجلها....

ووحدها أمي من بين كل هذا الرهط المحيط بي من الناس كانت تعنيني بكلماتها ودعائها وابتهالها وأحاديثها المكررة عن شبابها الموءود.

لم أتخيل يومًا أنني قد أجد راحتي في هذا المكان، القرية التي أكرهها وأكره كآبتها وفضول جدرانها وسذاجة سكانها باتت ملاذي.

كنت محتاجا للتفكير، التفكير وحسب بما يتوجب علي فعله.

قضيت أوقات الغروب في الحقول بين سنابل القمح والشعير، وأوقات المساء مع عائلتي دون أن أكون معهم تماما، وليلًا اتقاسم السهر مع النسيم والسماء والنجوم وصرير

الجنادب عوضًا عن تقاسم السرير مع هيلين. ومر أسبوعا الإجازة سريعا واصبح محتمًا علي العودة إلى ذلك الجحيم.

دومًا ما كنت على شفا حفرة من اتخاذ قرار أو البدء بخطوة فيرمي الكون في طريقي إشارة ما تقضي على ترددي وتحسم حيرتي، قد تكون تلك الإشارة صدفة أو جملة أو لقاءً أو شخصًا أتعثر به.

وهذا الشاب إشارة من الكون، بعثه لي صدفة فالتقيته بالمكان غير المناسب ورمى في مسمعي جملة وتمكن من أن يحول بسؤال مجرى حياتي وقرارا تي فكانت تلك الصدفة التي جمعتني به هي الحجة التي يوقع بها الله مشيئته.

قررت أن أتنازل عن النجمتين على كتفي ورغم معرفتي بخطورة هذا القرار واستحالة تنفيذه في هذا التوقيت بالذات إلا أنني صممت على طلب الاستقالة أما نزار فقد صعق عندما طلبت مساعدة والده الذي يدري كما أدري أن خطوة كهذه وفي هذا التوقيت الأمني الحرج قد تكون سببًا في تصفيتي كما حدث مع بعض الضباط والعسكريين الذين لم يتحملوا عبء ظلم أحد، وإن لم تكن التصفية المباشرة فموت على المدى الطويل في إحدى الأقبية المنسية.

(لا بد من وجود وسيلة أخرى غير الاستقالة إن كنت مصرا على قرارك، برأيي ان تسريحك بحجة إصابتك بمرض يمنعك من تأدية الخدمة هو خير وسيلة لخروجك من السلك، ولا تقلق التقرير الطبي سيكون جاهزا).

هذا ما قاله نزار نقلًا عن والده وأكمل بلسانه:

- لا أصدقك يا يونس، ما الذي يحدث لك؟ تحب في الوقت الخطأ، تتزوج في الوقت الخطأ،تنجب في الوقت الخطأ،تكسب أموالك عن طريق الخطأ، تندم في الوقت الخطأ، وها أنت الآن تستقيل في الوقت الخطأ.

قلت محاولاً تهدئته:

- يبدو أنني أمسيت كومة من الأخطاء بنظرك يا صديقي!
- لست أكثر من كومة قرارات خاطئة.
- لا تقلق، سأصلح كل شيء.

وأنهى الاتصال تاركًا وراءه خيط عتب دخانيًا، وأنا وجدت بعد تفكير أن رأي والده صائب وهكذا أضمن سلامتي وشعرت لوهلة بسعادة غامرة كون أيامي في هذا الجحيم باتت معدودة، وأردت أن أرى ذلك الشاب لمرة أخيرة لكي أخبره أن إشارات الكون كلها اجتمعت به لتحول مجرى حياتي، أردت أن

أراه لأجيبه على سؤاله الذي أرهقني وحولني إلى مجرد بذرة قابعة في قلب التراب ليتعرف الله علي من خلالها ذات قيامة، بذرة ندم محشورة في رغبتي الأخيرة بالبدء من جديد.

الآن لن أهرب من سؤاله ولن أخشى صداه وسأصحح السؤال بجواب،

وسأخبره أنني سلكت هذا الطريق سهوًا وأنني أقنعت نفسي أنه الطريق الصحيح والحقيقة تقول إن الخيارات لم تكن بمتناولي.

سأخبره أن صدفة جاءت بي إلى هنا وصدفة أخرى ستخرجني، ولن أنسى أن أعتذر له عن الصفعة التي وجهتها إليه عندما صفعت كلماته ضميري ولأنني أردت أن يشعر بجدية اعتذاري قررت الذهاب إليه بدل طلبه لمكتبي.

لم أنتبه للجدران المعتمة وبيوت العناكب المعششة في الزوايا والدرجات المكسورة والرائحة النتنة التي تنبعث من كل مكان في هذا المكان، حاولت تجاهل كل هذا القرف وأنا أنزل درجات القبو متجهًا إلى زنزانة الشاب ولكن الشيء الوحيد الذي لم أستطع تجاهله هو صراخ المساجين واستغاثتهم تحت وقع التعذيب، لم أستطع متابعة طريقي مع أنني نزلت مرات لا

تعد إلى هذا القبو ولم تستوقفني أصواتهم يومًا ولم ألحظ الجدران الملطخة بالدماء وقطع اللحم، لحمهم.

تراجعت وعدت إلى مكتبي منهكًا وكأنني قطعت مسافة عدة أميال لا بضع خطوات على درج مكسر، وطلبت إحضاره إلى عندي.

يبدو أن إنسانيتي التي استفاقت على حين صدفة لم تستطع احتمال ما يحدث في الأقبية من لا إنسانية وتمنيت لو أستطيع فعل شيء وفي نفس اللحظة سخرت من فكرتي الصماء فأنا لست قادرًا على فعل شيء غير ضمان عدم استمراريتي كجزء من كل هذا.

كان نبأ صادمًا هذا الذي وردني، بقيت وحيدًا في مكتبي، تمنيت لوأبكي، لو أصرخ، لو أنوح، ولم أستطع.

غصة في حلقي وحرقة في قلبي كانتا تستجديان دموعي عبثًا.

ما الذي أتى بذلك الشاب إلى هنا؟ لقد غير بسؤال قدري وأنهى بكلمة قدره.

لقد خبرته في موقف وحيد امتد على مساحة زمنية مساحتها عشر دقائق، كان شجاعًا لينطق هنا، في مكان لا يجوز النطق فيه غير توسل وآهات..

كان قويًا ليصرخ ويقول لا

كان ذكيًا ليغير بسؤال مجرى حياة إنسان ولكن حياته توقفت عن الجريان وما عاد نفسه يجري في الكون.

لقد قتلوه بدم بارد كبرد هذا الوطن المجنون الذي نعلن انتماءنا إليه وإلى مائه وترابه وسمائه وطينه ووحله وكوابيسه كل أمل...

وتخيلت عدة مشاهد للطريقة التي قتلوه بها.

ربما شنقوه فقطعوا عنه الحياة...

أو أطلقوا عليه رصاصة باغتت في عروقه الحياة...

وربما مات تحت التعذيب فغادرته إشفاقًا عليه الحياة...

أو أنهم أحرقوه مع غيره أو وضعوه تحت مكبس في معمل الحديد، أو أغرقوه أو التهمته الكلاب و الفئران الجائعة أو قطعوا أطرافه وتركوه ينزف حتى الموت أو سلخوا جلده حيا.

كلها احتمالات واردة فهم يتفننون في طرق التعذيب، وعندنا عقول عبقرية مهمتها ابتكار طرق جديدة كل مرة، ولو كانت جائزة نوبل تمنح لأفضل مبتكري طرق التعذيب والموت لحصدوها دون منافسة أو على أقل تقدير كانوا دخلوا موسوعة غينيس كونهم بالتأكيد يملكون أكبر عدد من طرائق التشويه والانتهاء من حياة الآخرين.

ومنذ ذلك اليوم، منذ ثلاثين عامًا وأنا رجل يتأرجح بين كابوس وشبح.

كيف يمكنني أن أخبر ليلى أن ذلك الشبح هو والدها؟

كيف سأخبرها أنني صفعته ظلمًا وأن صفعتي تسببت له بجرح برأسه أودت به إلى الموت؟

ولو أنه بقي حيًا، ما كانت شعرت بذلك اليتم وتلك الوحدة وكنت طلبت يدها منه.

كيف يمكنني أن أطلعها على كل ما مر بوالدها هناك؟

وكيف ستغفر لي عدم معرفتي لاسمه وارتباطه بذاكرتي ارتباطًا رقميًا لا أقل؟

لا أستطيع الاستمرار في هذا العذاب وهو يلاحقني كظلي انتهى الطريق هنا، تمامًا أمام ما من المفترض أنه بداية.

ينبهني النادل أنني تبللت بالماء المنهمر من السماء ويطلب مني الانتقال للجلوس داخل المقهى، استفيق من شرودي..

غادرت ليلى...

غادر الشبح....

وبقيت وحيدًا.

انتهت 2018/11/21